بناة القاهرة في ألف عام

د. عبد الرحمن زكي

تقديم ومراجعة

د. عبد العزيز فؤاد

الكتاب: بناة القاهرة في ألف عام

الكاتب: د. عبد الرحمن زكي

تقديم ومراجعة : د. عبد العزيز فؤاد

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

زكي ، عبد الرحمن

بناة القاهرة في ألف عام / د. عبد الرحمن زكي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٩١ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٣ – ٦٠٨ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٣٨١٤ / ٢٠١٨

بناة القاهرة
في ألف عام





مدخل للقراءة:

حتى لاننسى التاريخ

يمثل تاريخ بناء القاهرة في مراحله المتعددة منذ أنشأها القائد الفاطمي جوهر الصقلي، لتحل محل الفسطاط والقطائع، ولتكون على قمة المشهد التاريخي الذي استلمت رايته من الإسكندرية الحاضرة الأولى للعالم القديم، آثارا مهمة وثراءا تاريخيا عظيما يحفل بالكثير من الحوادث التي شهدت نمو هذه الحاضرة العربية الوافدة على أرض مصر بما لها من زخم واقعي يمتص آثار كل من دخل مصر وتولى الحكم من خلالها

(القاهرة) التي قهرت غزاتها، ومحتليها وحكامها بما لهم وما عليهم وما سطره التاريخ لهم من عطايا ورزايا..

يقول المؤلف في مقدمته الماتعة للكتاب:

"تتميز القاهرة كمدينة تاريخية عظمى بتراثها الفكري الديني والعلمي، كما أنها تتميز أيضاً بطائفة من العمائر الجليلة التي تعكس تطور العمارة الإسلامية في ألف وثلاثمائة سنة على أقل تقدير، ويشبه هذا التطور البنائي متحفا للعمارة عرضت في ردهاته عمائر كل مرحلة من مراحل التقديم، فإن

القاهرة تتميز وحدها بين مدن العالم الإسلامي بهذه الميزة، وتشاهد في أحيائها لقديمة حلقة متصلة من الأساليب المعمارية تتجلى في مبانيها الدينية"

من هنا تأتي أهمية الكتاب التاريخي الذي يشهد على تلك الآثار المجيدة لتلك العمائر والمباني والقلاع والأسوار التي كانت حامية لحدود البلاد مدافعة عنها من أطماع المغيرين عليها، فضلا عن المسحة الدينية المهيمنة على المدينة وأثارها المتواجدة غي كل شبر من مساحتها الآخذة في التوسع والتحوط لتكون بحق أم المدن الإسلامية بما لها من كل تلك المقومات التي تكللها كل الجهود التي تواصلت من خلال حكامها وولاتها عبر العصور من العصر الفاطمي بأزهره ومدارسه وأسبلته وعمارته وحدائقه التي يتميز بها، إلى العصر الأيوبي ولرموزه الزاهرة وعلى رأسها صلاح الدين الأيوبي البطل وقلعته وما أتى بعدها من رموز أثرية للحكام والولاة الذين أتوا بعده، مرورا إلى حقبتي المماليك البحرية والشراكسة، وما تركوه من أبواب ومساجد وآثار وساحات وأسوار ارتبطت بالدفاع عن المدينة القاهرة، ثم الأتراك العثمانيين، وغيرهم إلى هذا العهد الذي تفصلنا عنه مئات من السنين للقاهرة القديمة، أو العاصمة بوجهها القديم، وبحسب ما يقول المؤلف عن مراحل هذا البناء:

" لا شك أنه يتعذر علينا بعد مضي ألف سنة على تأسيس القاهرة، أن نقف على أسماء جميع أفراد طوائف الحرف المختلفة الذين ساهموا في بناء القاهرة، من حجَّارين وبنائين وملاطين ونقاشين ومزخرفين، ورخامين

ومبلطين.. وغيرهم ممن شاركوا مع هؤلاء من حمالين وعاملين، وسقائين، فضلاً عن آلاف المعماريين والمهندسين والمخططين، والذين أجهدوا قرائحهم في خلال الألف عام ليجعلوا من مدينة القاهرة عاصمة لأفريقيا ومركزا رئيسيا للحضارة الإسلامية ومنارا للعلم والمعرفة.. هذا أمر من المحال تحقيقه، ولذلك فما علينا إلا أن نختار من هؤلاء البُناة العظام الذين حفظ التاريخ العربي أسماءهم، كما خلد أعمالهم وعمائرهم على مر السنين"

فينقسم الكتاب المهم والذي صدر في أكثر من طبعة، إلى أربعة أقسام عن هؤلاء البناة، فيما بين فصله الأول المعنون ببناة القاهرة، والثاني المعنون ببناة القاهرة في أيام الأيوبيين، والثالث المعنون بالقاهرة في أيام دولة المماليك وما بعدها، والرابع عن رجال العمارة وهندسة البناء في القاهرة، معرجا على أهم الآثار الباقية والمندثرة التي تحفل بها القاهرة من خلال عمائرها الباقية، وخرائبها التي كانت يوما ما شاهدة على حضارتها في كل حقبة من حقب التاريخ، وذلك من خلال العديد من الأسماء التي ربما لايذكرها أحد في طيات هذه الأعمال الكثيرة التي تجدها في كل السبل من خلال أيضا عدد كبير جدا من الحرفيين والمهندسين، فضلا عن الملوك والحكام والولاة الذين نسبت إليهم تلك الأعمال المعمارية الخالدة، وهم من أطلق عليهم الكتاب "البناؤن"، وعلى بعضهم البنائين العظام

ولعل الحرص على طباعة هذا الكتاب من جديد، بما يحويه من صور ومعلومات وخرائط وآثار باقية، لهو من قبيل الرغبة في الحفاظ على تراث

هذه الأمة، وهذه الحاضرة/ القاهرة التي لا تفنى كنوزها ولا تقف إلا شامخة أمام عوادي الزمان.. تتوارث أجيالها تلك الحكمة وذاك التاريخ المقترن بالحفاظ على العروبة والدين وما جمع بينهما من رباط وثيق يتجسد في كل تلك الآثار التي يغلب عليها الطابع الدينى المحافظ على تراث الأمة وووحدتها، وطرزها المعمارية الخالدة التي لا تزال شاهدة على العظمة والأصالة والارتباط الحقيقي بأنثربولوجية المكان وميثولوجيته التي تتولد في صورها الأسطورية التي حفت وجود الكثير من النماذج البشرية التي ارتبطت بالمكان وتاريخه في زمان ما يجعلها باقية أبد الدهر.

د. عبد العزيز فؤاد

مقدمة المؤلف:

تتميز القاهرة كمدينة تاريخية عظمى بتراثها الفكري الديني والعلمي، كما أنها تتميز أيضاً بطائفة من العمائر الجليلة التي تعكس تطور العمارة الإسلامية في ألف وثلاثمائة سنة على أقل تقدير، ويشبه هذا التطور البنائي متحفا للعمارة عرضت في ردهاته عمائر كل مرحلة من مراحل التقديم، فإن القاهرة تتميز وحدها بين مدن العالم الإسلامي بهذه الميزة،

وتشاهد في أحيائها لقديمة حلقة متصلة من الأساليب المعمارية تتجلى في مبانيها الدينية: كالمساجد والزوايا والمدارس الدينية والتكايا، ومبانيها المدنية: كالقصور والدور والحمامات والأسبلة وقناطر المياه ومبانيها الحربية: كالقلاع والأسوار والأبواب، فضلاً عن الوكالات والخانات والأسواق والقيساريات.

وأتقدم للقارئ الكريم في هذا الكتيب بقصة تاريخ القاهرة المعماري ممثلاً في أنبل مبانيها التي أقامتها طائفة جليلة من أسامي بُناتها، اتصفوا على الأقل بحسن الذوق وبعد النظر.. منذ وضع القائد جوهر الصقلي اللبنة الأولى في أسوارها وفي جامعها الأزهر، وفي قصور خلفائها.. حتى بناة القاهرة الحديثة، موضحاً ذلك بالرسوم كلما كان ذلك في الامكان، وأسأل الله أن أكون قد وفقت..

عبد الرحمن زكي

الفصل الأول

بُنـــاة القاهرة

لا شك انه يتعذر علينا بعد مضي ألف سنة على تأسيس القاهرة، أن نقف على أسماء جميع أفراد طوائف الحرف المختلفة الذين ساهموا في بناء القاهرة، من حجَّارين وبنائين وملاطين ونقاشين ومزخرفين، ورخامين ومبلطين..

وغيرهم ممن شاركوا مع هؤلاء من حمالين وعاملين، وسقائين، فضلاً عن آلاف المعماريين والمهندسين والمخططين، والذين أجهدوا قرائحهم في خلال الألف عام ليجعلوا من مدينة القاهرة عاصمة لأفريقيا ومركزا رئيسيا للحضارة الإسلامية ومنارا للعلم والمعرفة.. هذا أمر من المحال تحقيقه، ولذلك فما علينا إلا أن نختار من هؤلاء البُناة العظام الذين حفظ التاريخ العربي أسماءهم، كما خلد أعمالهم وعمائرهم على مر السنين.

ففي أعقاب فتح العرب لمصر سنة ١٨هـ (٦٣٩) شيد القائد عمرو بن العاص مدينة الفسطاط في سنة ٢١هـ (٦٤١) ، واختط عمرو الجامع العتيق، ثم اختطت القبائل العربية من حوله، وكان عمرو قد ولى على الخطط أربعة من المسلمين للفصل بين القبائل في تنظيم خطة كل منها،

هم: معاوية بن خديج التجيبي، وشريك بن سمي الغطيفي، وعمرو بن محرم الخولاني، وجبريل بن ناشرة المعافري[1]

ولما قام بنو العباس انتفضوا على حكم الأمويين، أنشأوا حاضرة جديدة لدولتهم الناشئة في مصر في مكان عرف في صدر الإسلام باسم "الحمرا القصوى" في شمال شرق الفسطاط، وفيه أقام العباسيون دورهم واتخذوا مساكنهم، وشيد صالح بن علي دار الإمارة وثكن الجند، ثم شيد الفضل بن صالح مسجد العسكر، وبمرور الأيام اتصلت العسكر بالفسطاط، وأصبحنا مدينة كبيرة خطت فيها الطرق وشيدت عليها المساجد والدور والأسواق.

ومضت الأيام حتى جاء أحمد بن طولون إلى مصر وعزم على الاستقلال بالبلاد؛ فرأى أن العسكر لا تتسع للحاشية فضلاً عن أنها تضيق بمطامعه، فصعد إلى المقطم ونظر إلى ما حوله فرأى بين العسكر والمقطم أرضا فضاء إلا من بعض المدافن مساحتها نحو ميل مربع، فأمر بهدمها ليقيم عليها قاعدته، واختط في موضعها مدينته الجديدة "القطائع"، ووضعت الخطط الأولى للقاعدة الطولونية في شعبان عام ٢٥٦هـ /٨٧٠م، وبعد ست سنوات (٨٧٦م) احتفل أحمد بن طولون بوضع أساس جامعه العظيم على جبل يشكرن وانتهى بناؤه بعد عامين، ومازال الجامع علما ناهضا في تاريخ العمارة الإسلامية، وكان ولا يزال موضع

[1] ابن دقماق: الانتصار، جـ١،ص ٣٢٢

عناية جميع الحكام الذين تولوا الحكم من صيانة وتجديد وإضافة خلال أكثر من آلف عام...

وبعد قرابة مائة عام من إنشاء عاصمة آل طولون، قدم جيش فاطمي من المغرب بقيادة القائد جوهر الصقلي موفدا من قبل الخليفة المعز لدين الله وكان مسيره من القيروان في ١٤ ربيع الأول عام ٣٥٨هـ (يوليو ٩٦٩م) وصل جوهر إلى جيزة الفسطاط، فوقفت في وجهه حامية ضئيلة العدد، وفي اليوم التالي دخل جوهر الفسطاط وتربص في شمالها ثمانية أيام حتى تكاملت حوله جنوده بعد عبورهم النيل من الجيزة إلى الفسطاط .

وكان جوهر قد نزل مع جنده في المناخ الواقع شمال شرقي القطائع، وأخذ في وضع أساس القاعدة الفاطمية الجديدة – أي القاهرة – في نفس الليلة، وكان ذلك في يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ (٧ يوليو ٩٦٩) ويؤيد هذا ما ذكره المقريزي في خططه (جـ٢ ص ٢٠٤) كما وضعت أسس القصر الفاطمي الكبير (الشرقي) في ١٨ شعبان ٣٥٨ هـ وبدئ في بنيانه في رمضان في نفس العام، وفي يوم السبت جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (أبريل ٩٧٠) شرع القائد جوهر أيضاً في بناء الجامع الأزهر إلى جانب القصر الكبير (الخطط جـ٢، ص٢٧٣)،

وهكذا رأينا القائد جوهر في أيام معدودة بعد فوزه الحربي، يشيد قاعة جديدة بأسوارها وأبوابها ودار ملكها وجامعها الأزهر، بل وحفر خندقا من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام القرامطة للقاهرة وكانوا يهددون مصر.

حقاً لقد كان عملاً رائعاً، وذلك الذي قام به القائد جوهر، مؤسس القاهرة ومشيد الأزهر وفاتح مصر...

***

جوهر الصقلي الذي شيَّد القاهرة

هو القائد الفاطمي الذي لا تُعرف سنة مولده على وجه الدقة، فيقال أنه ولد حوالي عام ٩١٨م ورباه المعز لدين الله واختصه بين مواليه وجعله وزيرا، ثم عينه قائدا لحملة فتح مصر عام ٩٦٩م، فاستولى على الإسكندرية ثم واصل زحفه إلى الجيزة فوقعت في يده ودخل الفسطاط بعد عبور قواته نهر النيل، وتم عقد الصلح بين المريين والفواطم، أسس جوهر مدينة القاهرة لتكون مقراً للفاطميين ومركزا لنشر دعوتهم الدينية وشيد قصرا للخليفة الفاطمي وبنى الجامع الأزهر (٩٧٠-٧٢) وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة في ٧ رمضان ٣٦١هـ (٢٢ يونيو ٩٧٢) تولى جوهر قيادة الجيش الفاطمي للقضاء على أفتكين والحسن زعيم القرامطة بالشام (٩٧٦) ووطد سلطان الفواطم فيها، ثم عاد إلى مصر عام ٩٧٩ حيث توفي ودفن بالقرافة الكبرى بالقاهرة.

فما هي جنسية القائد جوهر، الذي فتح مصر وأسس الأزهر؟.. تكلم عن ذلك العلامة أحمد زكي باشا شيخ العروبة فقال: تضاربت الظنون، بسبب الوصف الذي أطلقه عليه كتاب العرب المتقدمون. لا مراء ولا جدال أن جزيرة صقلية كانت قد دخلت منذ زمان طويل في حوزة أمراء افريقيا ثم آلت من بعدهم إلى الفاطميين. في خلال ذلك الزمان، كان

قد انتشر فيها الإسلام أيما انتشار، وازدهرت بربوعها العروبة أيما ازدهار فنبغ منها العلماء والفضلاء والكتاب والشعراء وأهل الوجاهة والرفاهة، وكلهم يعرف بالصقلي نسبة إليها، وقد جمع أسماءهم الكثيرة وتراجمهم الوافية أحد المستشرقين الطليان وهو العلامة أماري(**Amari**) ، من هذا الفريق كان القائد جوهر والدليل على ذلك أن وظيفته الأولى التي كان معروفاً بها طول حياته وبعد مماته، إنما هي "كتابة" السر، ثم تولى قيادة الجيش، وقد أوغل في فتوحاته حتى انتهى إلى المحيط الأطلنطي، ولما كان الرجل منسوباً إلى صقلية، وكانت صقلية من البلاد الخاضعة لدولة الروم في القسطنطينية فقد نسبوه إلى هذه الدولة، وقالوا أنه "الرومي" كما كان الأتراك إلى الأمس القريب ينسبون قضاتهم وأشياخهم ورؤساء الدين منهم إلى الروم، بسبب أن الترك فتحوا بلاد الروم، فصاروا ينتسبون وينسبون إليها فيقولون إنهم "أروام" ويقولون فلان "الرومي"، والأمثال تبلغ المئات.

كان جوهر قائدا مدرباً وسياسياً محنكا، والدليل على ذلك أنه لم يلجأ إلى وسائل الشدة والعنف في نشر المذهب الفاطمي، وإنما اتبع والوسائل السلمية فاعتمد على المسجد الذي اتخذه أشبه بمدرسة يتلقى فيه الأهالي تعاليم هذا المذهب، دون أن يفرض على أحد اعتناقه، فقد أنشأ الجامع الأزهر ليكون مركزا لتعليم المذهب الفاطمي حتي لا يضايق المصريين السنيين في شعوره الديني في المساجد الأخرى.. وهذا التسامح لم يصرف جوهرا عن الغرض الأول من سياسة الفواطم، وهو تعميم مذهبهم بين المصريين وغيرهم، فقد لجأ في جذبهم إليه إلي الوسائل المادية، وذلك بإسناد منصب الدولة المهمة إلى معتنقي هذا المذهب، مصريين كانوا أو مغاربة..

هذه لمحة قصيرة عن بناء القاهرة .. القائد جوهر رحمة الله عليه، أنجب "حسين" الذي خلع عليه الخليفة العزيز بالله بعد وفاة جوهر، وجعله في رتبة أبيه ولقبه بالقائد بن القائد، ولم يتعرض لشيء مما تركه جوهر، فلما مات العزيز وقام من بعده ابنه الحاكم بأمر الله استدناه ثم أنه قلده البريد والإنشاء في شوال سنة ست وثمانين وثلاثمائة وخلع عليه، ثم بعد أمور وقعت له، قبض عليه وقتل وصودرت ضياعه ودوره..



صحن الأزهر الشريف

أمير الجيوش بدر الجمالي (٤٠٥/٤٨٧ هـ-١٠١٤/١٠٩٤م) البنَّاء الثاني:

وبعد انقضاء ١٢٠ سنة من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمالي، وكان يومئذ وزيراً للخليفة المستنصر بالله أن الناس شيدوا خارج سور القاهرة بسبب اتساع العمران ولا سيما في ناحيتها الشمالية والجنوبية، فأحاطها بسور وصله بسور جوهر يميناً ويساراً، ويستفاد مما جاء

بالخطط المقريزية (ج ١،ص ٣٧٩) أن السور الثاني الذي بناه بدر الجمالي في عام ٤٨٠ هـ – ١٠٨٧م زاد فيه من الشمال الزيادة التي بين بابي القوس اللذين أنشأهما جوهر في سور القاهرة الشمالي وبين السور الحالي الذي فيه باب النصر وباب الفتوح الحاليان، ثم أضاف فيه من الجهة الجنوبية الزيادة التي فيما بين بابي زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر في سور القاهرة الجنوبي وبين السور الذي فيه باب زويلة الحالي، وجعل بدر الجمالي الأسوار التي أنشأها من اللبن، وأقام الأبواب من الحجارة، وكذلك الأجزاء الواقعة على جانبي بابي الفتوح والنصر، وعلى جانبي باب زويلة على مسافة ١٢٠ متراً تقريباً من كل جانب. وقد زالت آثار الاسوار التي بناها بدر الجمالي باللبن وأقام صلاح الدين في مكانها بعض أجزاء منها قطعات أخرى بالحجارة.



باب الفتوح (٤٨٠٠ هـ– ١٠٨٧)

وتعتبر أعمال بدر الجمالي (وهي الأبواب الثلاثة) ذات أهمية بالغة، لأنها تعتبر معالم بارزة في العمارة العسكرية لعصور ما قبل الحملات الصليبية وهي باقية إلى اليوم في قلب القاهرة الأصلية وتحف بها بعض أجزاء من الاسوار القديمة .

والآن يود القارئ الكريم أن يلم بشيء من تاريخ حياة الرجل الثاني في بناء أسوار القاهرة وأبوابها. كان بدر مملوكا أرمنيا لجمال الدولة بن عمار ولذلك عرف بالجمالي، ومازال يأخذ بالجد فيما يباشره ويوطن نفسه على قوة العزم حتى ولي إمارة دمشق من قبل المستنصر بالله سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣م) ولأمر ما غادرها سراً ذات ليلة، ثم وليها ثانية سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦) فبلغه قتل ولده شعبان بعسقلان، فخرج في شهر رمضان سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧/٦٨) فثار العساكر وأخربوا قصره، وتقلد نيابة عكا، فلما كانت أيام الشدة في مصر (الغلاء والمجاعة) وثار العبيد في الريف والصعيد ونشط قطاع الطرق برا وبحرا، كتب المستنصر إليه يستدعيه ليكون المتولي لتدبير دولته، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من العسكر ولا يبقى أحد من عسكر مصر، فأجابه المستنصر إلى ذلك فاستخدم معه عسكره وركب البحر من عكا واقترض المال من تجارها وأثريائها الذين قدموا له الغلال، وسار إلى قليوب فنزل بها وأرسل إلى المستنصر يقول: "لا أدخل إلى مصر حتى تقبض على "بلد كوش" وكان أحد الأمراء وقد اشتهر على المستنصر، فبادر الخليفة واعتقله بخزانة البنود فقدم بدر عشية الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢/٧٣) ، فتهيأ له أن قبض على جميع أمراء الدولة بعد أن استدعاهم إلى منزله في

دعوته لهم، وبيت مع أصحابه أن القوم اذا أجنهم الليل فإنهم لابد يحتاجون إلى الخلاء، فمن قام منهم إلى الخلاء يقتل هناك، ووكل بكل واحد واحدا من أصحابه، وأنعم عليه بجميع ما يتركه ذلك الأمير من أقطاع ودور ومال، فسار الأمراء إليه وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين، فما طلع النهار حتى استولى أصحابه على جميع دور الأمراء وصارت رءوسهم بين يديه فقويت شوكته وعظم أمره، وخلع عليه المستنصر بالطيلسان وقلده وزارة السيف والقلم فصارت القضاة والدعاة وسائر المستخدمين من تحت يديه، وزيد في ألقابه أمير الجيوش "كافل قضاة المسلمين وهادي المؤمنين" وتبع المفسدين فقضى عليهم؛ وقتل من أماثل المصريين وقضاتهم ووزرائهم جماعة ثم خرج إلى الوجه البحري فأسرف في قتل من هناك من قبائل لواته واستصفى أموالهم وأفنى طائفة كبيرة من مفسديهم، ونزل إلى الإسكندرية وقد ثار بها جماعة فحاصرها أياما من المحرم سنة سبع وسبعين وأربعمائة إلى أن أخذها عنوة وقتل جماعة ممن كانوا بها، وعمَّر جامع العطارين من مال المصادرات وفرغ من بنائه في ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦م) ثم سار إلى الصعيد فحارب قبائل جهينة والثعالبة، وأفنى أكثرهم بالقتل وغنم من الأموال كثيراً فصلح حال الأقاليم بعد فساده ثم جهز الجند لمحاربة الشام ولم يظفر منها بطائل.. واستناب ولده شاهنشاه وجعله ولي عهده، ومات في ربيع الأخر وقيل في جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤) بعد أن تحكم في مصر تحكم الملوك، ولم يبق للمستنصر معه أمر واستبد بالأمور وضبطها أحسن ضبط، وكان شديد الهمة موفور الحزم، ودفن خارج باب النصر شمال مصلى العبد

وبنيت على قبره تربة جليلة، وقام من بعده بالأمر ابنه شاهنشاه الملقب بالأفضل ابن أمير الجيوش .

لم يهمل بدر الجمالي مدينة القاهرة فقد وسعها من حديها الشمالي والجنوبي، ففي عام ١٠٨٧م سمح بالسكن فيها ولذلك امتد عمران القاهرة إلى أطرافها وخارج أسوارها وصار يقال لأبنية القاهرة خارج أسوارها "ظاهر القاهرة" وأنشئت أخطاط جديدة بعد أن كانت فضاء تشتغله البساتين،

وعلى حافة المقطم أو في أعلاه، شيد الوزير بدر الجمالي مسجداً يعرف اليوم بمسجد الجيوشي، وكان ذلك في عام ١٠٨٥ وهو يشتمل على مقبرة وكان أول مسجد بني بالحجارة في القاهرة ومئذنة المسجد أقدم المآذن الفاطمية الباقية في القاهرة، وهي تقوم في منتصف الضلع الشمالي ويبلغ ارتفاعها عشرين متراً وتتركب من قاعدة مربعة وتنتهي بمقرنص يعوه مربع آخر، فمثمن يحمل قبة

الفصل الثاني

بُناة القاهرة في أيام الأيوبيين

كان يوسف صلاح الدين أحد ضباط الحملة التي أرسلها السلطان نور الدين محمود إلى مصر بقيادة الأمير شيركوه الأسدي لطرد الصليبيين منها، وقد نجحت الحملة في تحقيق هدفها، وكان الخليفة العاضد لدين الله قد استوزر صلاح الدين فأصبح بذلك الرجل الأول في الدولة،

ولما قضي الأمر بوفاة العاضد لدين الله عام ٥٦٧ هـ (١١٧١م) أبعد الوزير قراقوش جميع الفاطميين عن قصورهم، واستولى عليها صلاح الدين، وتسلم ما كان فيها من المال والخزائن والتحف.. وباستيلاء صلاح الدين على مصر (٥٦٧ هـ) سمح للمصريين بسكنى القاهرة بعد أن كانت خاصة بالخلفاء الفواطم وأتباعهم، وإن كان القائد بدر الجمالي من قبل، قد أذن لمن استطاع البناء أن يعمر ما شاء من القاهرة مستخدماً في ذلك أنقاض الفسطاط، لم ينسج صلاح الدين على منوال من سبقوه في الحكم وأقام ضاحية ملكية على مثال "القطائع" أو "فرساي "

بل عمل شيئاً جديداً، فقد رأى أن يضم تلك الضواحي ببناء سور حولها ثم يتوجها بقلعته الشهيرة فوق جبل المقطم، وكانت مدينة مصر بعد أن حرقها "شاور" تحاول النهوض من رمادها وبقاياها التافهة لتجدد شبابها

فوجدت من يأخذ بيدها لينهض بها.. كذلك رأى صلاح الدين أن يجمع معها تلك النواحي المبعثرة ضمن الضواحي الخربة ويضم إليها ميناء المقس ثم يلتف السور حولها، وقرر أن يكون بناء السور من الحجر وأن يمد سور بدر الجمالي إلى المقس من ناحية الغرب وإلى تلال المقطم من ناحية الجنوب، ثم يلتف عند بقايا مدينة الفسطاط القديمة حتى يمس النيل تقريباً، ولم يتم هذا المشروع العظيم لأن وزيره في القاهرة كان مشغولاً عنه أيضاً بتعبئة الرجال المدربين للقتال وتدبير المال للازم لتجهيزهم فلم يقم إلا ببناء ما احتاجت إليه الدولة.

السد العظيم:

ومن أهم أعمال صلاح الدين الدفاعية بناء السد العظيم على الضفة الغربية للنيل عن الجيزة ويبعد عن مصر سبعة أميال، وقد وصف الرحَّالة ابن جبير هذا السد بأنه مشروع عظيم لا يقدم عليه إلا ملك متنور ساهر على أحوال رعيته وبلاده، وقال عنه أنه يحتوي على أربعين عقداً من أكبر الأحجام التي شاهدها للقناطر ذات العقود، وكان على امتداد الجسر المرتفع المقابل لمصر بعد ستة أميال منه، ولا شك أن بناء مثل هذا السد كان لسبب عسكري هام فكر فيه صلاح الدين فإنه لم ينس تاريخ غارات الفاطميين المتوالية على مصر من ناحية الصحراء الليبية حيث كان المغيرون يتقدمون سيراً حتى يصلوا إلى شاطئ النيل دون أن يقف في سبيلهم ما يعرقلهم من الحقول أو الجسور، ولهذا رأى صلاح الدين أن يتحصن بإقامة هذا السد العظيم.

قلعة صلاح الدين

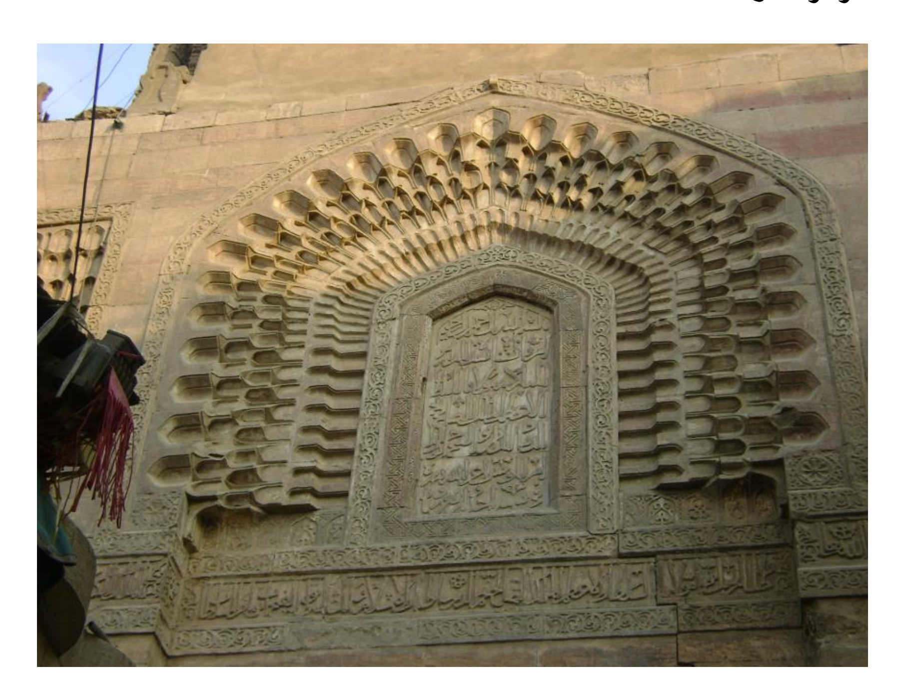
ولم تكن أسوار صلاح الدين إلا صورة منقحة لأسوار بدر الجمالي، أما القلعة فكانت فكرة مبتكرة، ويحتمل أن يكون الباعث لصلاح الدين على إقامتها بغضه الشديد للخلفاء الفاطميين الشعبيين ولقصورهم التي سكنوها، فقد لا نشك إذا قلنا أن صلاح الدين على الرغم من قصر مدة إقامته في القاهرة رغب في أن يجعل القلعة مقراً لسكنه، ولكي نفسر كيف أراد أن يشيّدها كقلعة للدفاع نعود إلى حملات صلاح الدين في سوريا حيث لا تخلو مدينة سورية من قلعتها، فنظر بعينه العسكرية ورأى حاجة القاهرة إلى قلعة تحميها فتمت مشيئته.

اختار صلاح الدين المكان لإقامة تلك القلعة التي تحكم القاهرة على ارتفاع لا يقل عن ٢٥٠ قدما، ولو أنه كان من ورائها على الجبل مواقع أعلى تحكم موقع القلعة وتشرف عليها بنيرانها فإننا لا ننسى مكانة الأسلحة الحربية القديمة بجانب الأسلحة الحديثة، والنتيجة لا تجعلنا نبخس المهندسين العسكريين في القرن الثاني عشر حقهم من الكفاءة والمقدرة في فن العمارة فإن عملهم لايزال واضحاً لزملائهم في القرن العشرين.

وقام صلاح الدين بتشييد مشروع بناء القلعة في عام ١١٧٧م، وأقام على عمارتها الأمير بهاء الين قراقوش الأسدي الخصي وأحد أمرائه المخلصين، ولم ينقض على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج في الضلع الغربي من القلعة ما نقرأه إلى يومنا هذا.

"بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ" أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة التي جمعت نفعاً وتحسينا وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصيناً لمولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبي بكر مُحَمَّد خليل أمير المؤمنين، على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الملك المالكي الناصري في سنة تسعة وسبعين وخمسمائة (أي في عام ١١٨٣ – ١١٨٤م) .

واجهة مدرسة الصالح نجم الدين أيوب، ونلاحظ فيها المقرنصات الزخرفية والكتابات النسخية



مات صلاح الدين قبل أن ينتهي بناء القلعة فأهمل العمل مدة إلى أن

كانت سلطنة الملك الكامل مُحَمّد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في قلعة الجبل وأنابه في حكم مصر وجعله ولي عهده، فأتم بناء القلعة وما برح يسكنها حتى مات فاستمرت من بعده دار مملكة مصر عام ١٨٥٠- وليس اليوم من أعمال صلاح الدين الأولى سوى بعض أجزاء الأسوار والأبواب.

سور القاهرة

ابتدأ السلطان صلاح الدين عمارة السور الثالث للقاهرة سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠/٧١م) وهو يومئذ وزير للخليفة العاضد لدين الله، وفي عام ٥٦٩ هـ (١١٧٢/٧٤) انتدب الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي لعمل السور فبناه بالحجارة كما هو عليه لآن، وأراد أن يجعل على القاهرة ومصر (مصر القديمة) والقلعة سوراً واحداً؛ فزاد في سور القاهرة الممتد من باب القنطرة إلى باب الشعرية، ومن باب الشعرية إلى باب البحر، ومن قلعة المقس في نهاية السور البحري على النيل بجانب جامع المقس، وانقطع السور من هناك وكان أمله أن يمد السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر (مصر القديمة) ثم زاد في سور القاهرة الجزء الذي يلي باب النصر إلى برج الظفر، ومن هذا البرج إلى باب البرقية، ومنه إلى درب بطوط، وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل فانقطع لوفاة صلاح الدين من مكان يغرب الآن من الصور تحت القلعة، وقد ذكر المقريزي أن طول السور المحيط في أيامه بلغ ٢٩٣٠٢ ذراعاً (بذراع العمل، وهو الذراع الهاشمي).

شرع صلاح الدين في سنة ٥٦٦ هـ في بناء السور الغربي للقاهرة على الحافة الشرقية للخليج المصري في محاذاة سور بدر وسور جوهر وعلى بعد قليل منهما إلى جهة الغرب، وأقام صلاح الدين فعلاً قطعة من السور الغربي، وهي الممتدة من النهاية الغربية لسور بدر الجمالي البحري ومتجهة نحو الجنوب إلى باب القنطرة الذي أنشأه صلاح الدين في السور الغربي المذكور تجاه باب القوس الذي كان معرف بباب الرماحين، ثم رأى أن يزيد في سور المدينة البحري ومنه إلى الغرب ويبني سورها الغربي على النيل بدلاً من الخليج، وذلك لكي يدخل في السور القسم الذي استجد خارج القاهرة في الجهة الغربية منها بين الخليج والنيل، ولكي ينفذ هذا المشروع أوقف بناء السور الغربي على الخليج بعد باب القنطرة.

وفي سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣/٧٤ م) شرع بها الدين قراقوش في مد السور البحري من باب الشعرية إلى باب البحر بالمقس وأتمه فعلاً وأراد أن يبني السور الغربي للقاهرة على النيل من باب البحر إلى فم الخليج ليوصل سور القاهرة بسور مصر القديمة ولكن وفاة صلاح الدين حالت دون ذلك. وقد اندثر أغلب سور صلاح الدين، والباقي منه مبين على الخريطة للقاهرة وضحت عليها الآثار الإسلامية بألوان مختلفة طبعتها مصلحة المساحة بإشراف لجنة حفظ الآثار العربية.

صلاح الدين يبني قبة الإمام الشافعي

لما توفي الإمام الشافعي في سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) دفن بتربة أولاد ابن عبد الحكم، وفي عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦م) السيد السلطان صلاح

الدين الأيوبي تربة الشافعي، وبنى بجوارها المدرسة الصلاحية، وفي سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨م) فرغ من عمل التابوت الخشبي الذي يعلو تربة الشافعي، وهذا التابوت صنع من خشب الساج الهندي المقسم إلى حشوات هندسية منقوشة ومكتوب عليها آيات قرآنية، وترجمة حياة الشافعي واسم الصانع الذي قام بعمله، وذلك بالخطين الكوفي، والنسخ الأيوبي، ولما توفيت والدة الملك الكامل بن العادل سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١م) شيد الكامل قبة كبيرة ضمت إلى قبر الشافعي وقبر أولاد ابن عبد الحكم وأفراد الأسرة الأيوبية ثم أجرى الماء إليها من بركة الجيش، وكان الفراغ من إنشائها في يوم الأحد ٧ جمادى الأولى سنة ٦٠٨هـ (١٢١١م) ثم أنشأ تابوتا من الخشب فوق تربة والدته لا يقل دقة عن تابوت الشافعي. والملك الكامل مُحَّد هذا هو منشئ دار الحديث الكاملية الجليلة في النحاسين، وكان ذلك في عام ٦٢٢ هـ (١٢٢٥م) وتقع بقايا الدار الكاملية على الجانب الغربي لسوق النحاسين، وإلى الناحية الشمالية لمدرسة وضريح السلطان برقوق.

منشآت الملك الصالح نـجم الدين :

وتُنسب إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي المدرسة الصالحية التي وضع أساسها في ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢م) وبدأت الدارسة فيها في العالم التالي، وذلك بالرغم من ضخامة بنائها، وقامت على موضع القصر الفاطمي الشرقي وكان أول من درس بها في المقابلة قاضي

القضاة شمس الدين أبو بكر، وتعتبر مئذنة المدرسة نموذجا فريدا للمآذن الأيوبية، ولها مكانتها من ناحية التطور المساري للمئذنة.

وشيَّد الملك الصالح في أقصى جنوب القاهرة، وفي جزيرة الروضة، قلعة منيعة في عام ٦٣٨ هـ (١٢٣٩م) وعمل لها ستين برجا وبنى فيها مسجدا وغرس بداخلها أنواعا شتى من الأشجار وشحنها بالسلاح والأزواد، وكانت هذه القلعة تستغل مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فدانا، ومنذ ذلك الحين شيَّد الناس المساكن في الجزيرة وأصبحت من المناطق الآهلة بالسكان.

بنَّاء القلاع والأسوار.. قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب ببهاء الدين

ومن عسى أن يكون هذا الأمير الذي اختاره صلاح الدين الأيوبي من صفوة الأمراء ليشيِّد أسوار القاهرة ويبني قلعة الجبل والسد العظيم، اتصل الفتى الرومي بأسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب في خدمة ملك عظيم من آل زنكي، هو عماد الدين، ثم مات هذا الملك وخلفه على الحكم في الشام ولده نور الدين محمود، فقرب هذين الضابطين الأخوين انتفع بخدمتهما، وبعد سنوات أعتق أسد الدين قراقوش، وأصبح ينسب إليه، فيقال قراقوش بن عبد الله الأسدي، ولما مات أسد الدين اتصل الضابط قراقوش بخدمة ابن أخيه صلاح الدين، فصار يدعى بهاء الدين بن عبد الله الأسدي الناصري، وكان هذا الفتى قد أتى إلى مصر ضمن الحملة التي أوفدها نور الدين للتدخل في شئون مصر ايام التهديد الصليبي،

فذهب إليها أسد الدين، ومعه أبن أخيه صلاح الدين وقراقوش، وشاهد الثلاثة انهيار الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية، وهكذا أصبح هذا الفتى الجندي من أهم دائم الدولة الفتية الجيدة. وفي عام ٥٦٤ هـ (١١٦٨م) اضطرب رجال القصر الفاطمي وسعى بينهم من حذرهم عاقبة وزارة صلاح الدين ووقفهم على نيات هذا الرجل الخطير وأهمها إزالة الدعوة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية ثانية.

في تلك الآونة أخذت المؤامرات تظهر واحدة فواحدة وكانت أولاها مؤامرة داخل القصر الفاطمي، دبرها خصي أسود اسمه "عبد المؤتمن"، أراد بها إسقاط صلاح الدين والقضاء على جنده وعلى من أتوا معه من أهله وعشيرته، وكاد النجاح يكتب لهذه المؤامرة لولا ذكاء القاضي الفاضل من ناحية، ولولا سيف الملك شمس الدولة بن أيوب وهو الأخ الأكبر لصلاح الدين من ناحية ثانية.

في هذه الآونة فكر "عبد المؤتمن" ورجاله أن يملأوا أيديهم من ذخائر القصر الفاطمي التي توشك أن تضيع منهم إلى الأبد، وكان من أغراضهم في ذلك أن يستعينوا ببعض ثمنها على تشجيع الجند، وتوفير المال للازم لرجال المؤامرة.

عرف ذلك الوزير صلاح الدين، فلم يمض وقت طويل حتى هداه تفكيره إلى الخادم الأمين، وصديقه الغيور، بهاء الدين قراقوش، فجعله متولي القصر الفاطمي، يحرسه ويصون ذخائره، فقام على حراسته بين لم تكن أحدا من أولئك المتآمرين من أخذ شيء من ذخائره، على كثرتها

ودقتها وسهولة حملها وإمكان إخفائها.

قراقوش ينشئ الأعمال الحربية

كان بين الحكومتين الفاطمية والأيوبية فروق، يمكن أن ترد كلها إلى سبب واحد، هو أن حكومة الفاطميين كانت حكومة مدنية، أما حكومة السلطان صلاح الدين فكانت حكومة عسكرية، عنيت الأولى منهما بنظام الدواوين واستكثرت فيها من الكتاب والموظفين، على حين اكتفت الثانية بعدد يسير من هذه الدواوين، ومن الموظفين واستأثرت الحرب بجزء عظيم من عناية الدولة الأيوبية، وذلك أن مهمة هذه الدولة انحصرت يومئذ في شيئين هما: التغلب على مذهب الشيعة في داخل مصر، ثم إحراز النصر النهائي على الفرنج وإجلائهم عن القدس.

من أجل ذلك احتاج السلطان صلاح الدين إلى منشآت حربية ومدنية، كان من أهمها إذ ذاك إقامة الجسور، وتطهير الترع، وتشييد القلاع والأسوار المحيطة بالبلاد، لتقيها شر الغارات التي تأتي إليها من جانب الفرنج تارة والشيعة المنبثين في بقاع كثيرة من العالم الإسلامي تارة أخرى، ومن لهذه المشروعات الحربية العظيمة غير الأمير بها الدين قراقوش، يبذل فيها جهده، وتعينه على البذل طبيعة له عرفت بالصبر وبالجلد، ثم مواهب هندسية سرعان ما كشف عنها صلاح الدين وأفاد منها حروبه فائدة ليس من إنكارها من سبيل.

لعل أول ما أقام الأمير من ذلك قلعة الجبل، بناها على قطعة مرتفعة تنفصل من جبل المقطم، وتشرف منها على القاهرة كلها، تم بناؤها في

عهد الملك الكامل من ملوك بني أيوب، واتخذت منذ ذلك اليوم مقراً للحكومة، واستمر الحال على ذلك إلى زمن مُحَّد علي باشا، ثم لم يكن إلا في عهد إسماعيل أن انتقلت دواوين الحكومة إلى دور أخرى وسط القاهرة، غير أنه ما كاد الأمير قراقوش يفرغ من بناء قلعة الجبل، حتى اشتغل في بناء قلعة أخرى يقال لها قلعة المقدسي وهي برج كبير بناه الأمير على النيل، وبنى بالقرب منه أبراجا أخرى، ثم ما كاد الأمير يستريح ايضاً من بناء هذه الأبراج والحصون، حتى شغل نفسه بمشروع آخر هو إقامة سور عظيم حول مصر والقاهرة، قطع الحجارة من الأهرام الصغيرة وبناه تجاه الجيزة على مسافة بعيدة منها، أقبل الأمير قراقوش على بناء السور، وحفر في القلعة بئراً وكانت هذه البئر من عجائب الأبنية، يدور البقر من أعلاها، وينقل الماء من وسطها، وتدور أبقار أخرى في وسطها، فينقل الماء من أسفلها، وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء، وقيل أن أرض هذه البئر مسامتة لأرض بركة الفيل، وإن ماءها كان عذباً في أول الأمر، ثم أراد قراقوش الزيادة في مائها، فوسعها، فخرجت منها عين مالحة، غيرت حلاوتها[2]

وكان هذا السور الذي بناه قراقوش هو ثالث الأسوار التي أحاطت بالقاهرة إلى عهده.

عند ذلك كتب القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين رسالة طويلة منها قوله :

---

[2] د. عبد اللطيف حمزة: حكم قراقوش مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

"والله يحيي الموتى حتى يستدير بالبلدين نطاقه، ويمتد عليهما رواقه، فما عقيلة كان معصمها ليترك بغير سوار، ولا خصرها يتحلى بغير منطقة نضار، والآن قد استقرت خواطر الناس، وآمنوا من يد تتخطف، ومجرم يقدم ولا يتوقف".

فلما قرأ السلطان الرسالة سُرَّ بها وبخادمه بهاء الدين قراقوش، وعلم أن الله تعالى يريد بدولته خيراً، إذ قيض لها مثله ومثل وزيره القاضي الفاضل.. بذلك أصبحت لقراقوش خبرة بمثل هذه الأعمال الحربية الجليلة، وكان السلطان كلما احتاج إلى عمارة قلعة، أو تجديد حصن، أو تقوية جسر أو إقامة سور، أو بناء برج، عهد إليه في هذا العمل، فقام به على خير طريقة. ولعل آخر ما قام به من ذلك عمارته لسور عكا عام ٥٨٥هـ ١١٨٩م، وذلك في أثناء المحن الكبرى التي مرت به وبالمسلمين.

قراقوش الجندي في حصار عكا :

كان قراقوش جندياً له شخصيته البارزة في الجيش، غير أنه كان ذا ميول حربية هندسية، عرفها السلطان صلاح الدين، فكان يؤثر أن يتركه لهذه الأعمال التي ذكرنا طرفا منها .. ويذهب هو إلى القتال ومعه قواده وأبطاله ممن كانوا يحسنون الكر والفر في الميدان، من أجل ذلك لم نسمع بهاء الدين قراقوش أنه اشترك في حرب للسلطان إلا حين كان يدعوه السلطان إلى إقامة الأسوار ونحوها، فإذ ذاك لا يجد الأمير بدا من الذهاب معه.

ومضت السنون، وانتصر السلطان صلاح الدين على الفرنج،

واستولى منهم على بيت المقدس، ثم تقدم في فتوحه، حتى يسر الله له فتح حصن من اكبر حصون الفرنج، وهو حصن عكا، فملك السلطان هذا الحصن للمنيع، ولكن بعد أن دفع فيه الثمن غالياً، من المال والأنفس، واستشهد في ذلك اليوم أخ للفقيه عيسى الهكاري، وأتى الناس يعزونه، فأنكر عليهم ذلك وقال: "هذا يوم الهناء، لا يوم العزاء."

وكان سور المدينة قد تهدم من شدة القتال، فرأى السلطان أن يترك المدينة والحصن للأمير قراقوش، ويذهب هو لامتلاك الحصون الأخرى، قبل أن يجمع الفرنج شملهم، أو يأتيهم المدد من ملوكهم فيما وراء البحر، فبقي الأمير في هذه المدينة، وبقيت معه حامية ليست بالكبيرة وسهر في إقامة ما تهدم من السور وعكف على عمله هذا بهمة، وهو واثق من أمر الله الذي وهب للمسلمين النصر حتى ملكوا هذا الحصن، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان حدث أن الفرنج بعد انهزامهم اجتمعوا في حصن آخر من حصونهم، واتفقوا على أن يذهبوا بجموعهم إلى عكا، حيث يظلون محاصرين لهذه المدينة، أو يأتيهم المدد الذي طلبوه من بلادهم، وكان قصد الفرنج من ذلك أن يشغلوا بهذا الحصار بال المسلمين، فقد أصبح بينهم وبين أن يطردوا الفرنج من البلاد نهائياً، أن يأخذ المسلمون منهم بضعة حصون كانت لهم على الساحل.

فضرب الحصار على عكا عامين، ذاق فيهما الأمير والمسلمون معه الأمرين بل ذاقوا هناك أقسى ما عرفته المحنة الصليبية من الألم، حتى لقد نفدت الأقوات من المدينة، وكان على المسلمين أن يمدوا إخوانهم فيها

بالطعام والميرة، ولكن الفرنج كانوا كثيراً ما يحولون بينهم وبين هذا العمل الذي تتوقف عليه حياة المسلمين في هذه المدينة البائسة، فانتشر فيهم الجوع وفغر الوباء فاه، والعدو مع ذلك يمطر رجال الحامية وابلا من عذابه من خارج الحصن.

كل ذلك والأمير بهاء الين قراقوش يصبر ويتجلد، وكلما فكر جنده في التسليم للعدو منّاهم وأمَّلهم وشدّ عزائمهم، وما زال بهم حتى لا يرجعوا عن هذا العزم، ويتقدموا شجعاناً كعادتهم لإخافة هذا الخصم.

ومع ذلك شاءت الأقدار أن يخذل هذا الأمير الصابر، في الدفاع عن نفسه وشرفه وجنده في هذه المحنة القاسية، فأتى المدد إلى الفرنج من ملوكهم فيما ورا البحر، ووقف ملوك الصليبيين صفاً واحداً أمام جيش صلاح الدين، فوهن المسلمون يومئذ، ودخل الملوك المسيحيون عكا، وانهالوا على أهل المدينة نهباً وذبحاً وأسراً، وكان الأمير نفسه ممن أسروا، وبقي في الأسر حتى أفرج عنه حين عقد الصلح، وكان يوم الإفراج عنه يوم سرور عظيم، إذ فرح به السلطان الفرح كله، لما كان له عليه وعلى الإسلام كله من الحقوق، فبقي الأمير إلى جانب السلطان لم يفارقه حتى فارق السلطان هذه الدنيا، وكان الإفراج عنه في يوم الثلاثاء ١١ شوال سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢م) وعاد إلى مصر حيث توفي في مستهل رجب سنة٥٩٧ هـ (١٢٠٠م) بالقاهرة.

الفصل الثالث

القاهرة في أيام دولة المماليك وبعدها

يمكن القول بأن العصر الذهبي للقاهرة هو الفترة التي حكمت فيها دولة المماليك (١٢٦٠ – ١٥١٧)، ولا سيما بعد ما انتهت الحروب الصليبية في الشام عام ١٢٩١ وخف الضغط المغولي عقب انتصار المماليك، ففي أيام السلطان الظاهر بيبرس امتدت القاهرة في اتجاه الشمال خارج الأسوار في حي الحسينية،

فقد شيَّد الظاهر مسجدا رائعا في ميدان قره قوش يعرف اليوم باسم "جامع الظاهر"، وكان اسمه قديما "جامع الصافية"، وقد شيَّد الظاهر في قلعة صلاح الدين العديد من المباني الجميلة كدار الذهب، وأنشأ سوقاً للخيل، كما أنشأ جسراً كبيراً يصل بين بركتين كبيرتين بالقاهرة، أهم من كل ذلك أنه أقام قناطر السباع على الخليج الكبير، بالقرب من مسجد السيدة زينب، وكان هذا الخليج المتصل بالنيل من أهم معالم القاهرة في العصور الوسطى، ولا ننسى أن أمراء الظاهر شاركوه في بناء كثير من العمائر والرباع والخانات والدور والمساجد والحمامات التي أضافت مسحة من الجلال والجمال على تلك المدينة.



الباب الغربي لمسجد الظاهر بيبرس

اتسعت القاهرة في أيام أسرة قلاوون التي حكمت مصر حوالي المائة سنة، ولا سيما في عهد السلطان الناصر مُحَّد قلاوون وأمرائه وقادة جيشه، فامتدت المدينة جهة الشمال عبر الصحراء والشمال الغربي، والغرب أيضاً، بما طرحه النيل من أرض جاء بها الطمي فتحول مجراه تدريجياً من الشرق إلى غرب القاهرة، ولم يترك المماليك قطعة أرض داخل القاهرة الفاطمية أو خارجها في شماليها أو جنوبيها حتى أقاموا فيها المساجد والمدارس والأضرحة والحمامات والسبل والوكالات، فكان الإقبال على البناء والتعمير في عصر المماليك لا مثيل له بالرغم من انشغالهم بمحاربة المغول والصلبيين، فقد عمَّ الرخاء في أيامهم وتوفر المال في خزائنهم بما

كانت تعود به التجارة مع الشرق والغرب، وما كانوا عليها من المكوس، ولذلك تسابق السلاطين والأمراء والأعيان في إقامة أفخم المساجد وأروع القصور والدور التي حشدوا فيها التحف النادرة، وما زالت طائفة كبيرة من هذه الدور نشاهدها في أنحاء القاهرة.

كانت أيام القاهرة في عصر الناصر مُحَمَّد بن قلاوون عصرا ذهبياً دون شك، فقد أحب هذا السلطان العمارة فأخذ هو وأمراؤه في ترصيع القاهرة بمجموعة المباني التي قلماً تجتمع في أية مدينة وفي عصر واحد، أنشأ الناصر تحت قلعة صلاح الدين ميداناً فسيحاً للألعاب والمسابقات بين الأمراء، وعمر كثيراً من القصور في داخل القلعة كما شيَّد فيها جامع ذات المئذنتين، وهو مازال ناهضاً فيها، وبنى بالقلعة دوراً للأمراء الذين زوَّجهم لبناته وأجرى إليها المياه العذبة.

ومن أهم أعمال الناصر مُحَمَّد حفره الخليج الناصري في غرب القاهرة حتى أوصله إلى سرياقوس وكان يتصل بالخليج الكبير القديم، وذلك لزيادة الماء فيه، وكان هذا الخليج يبدأ من موردة البلاط، ويمر بأراضي اللوق وبركة قرموط وباب البحر، ثم أرض الطبَّالة (بالقرب من الفجَّالة) وعندها يصب في الخليج الكبير، وقد انتهى حفره في شهرين فقط، ومما نذكره أن أرض الطبالة كانت من أجمل منتزهات القاهرة، وكانت تمتد في المنطقة التي على جانب الخليج الغربي وتغطي اليوم جزءًا من حي الظاهر وجنوب شارع الفجَّالة، وشرقها شارع الخليج المعروف اليوم، وجدير بالذكر أن

"الطبَّالة" هو اسم مغنية الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وكان وهبها أراضي تلك المنطقة.

وفي أيام السلطان الناصر مُحَمَّد، وفد على مصر أمير الرحَّالين المسلمين ابن بطوطة، وكان ذلك في عام ١٣٢٦ وقد وصف في رحلته البلدان المصرية التي مر بها وخصَّ القاهرة بنصيب الأسد، فقال: "وصلت إلى مدينة مصر (كانت تعرف القاهرة بمصر كما الحال اليوم) وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة والبلاد المتناهية في كثرة العمارة المتناهية بالحسن والنضارة، مجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف القادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل وجلد وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها، شبابها يجد على طول العهد وكوكب تعاليها لا يبرح عن منزل السعد، قهرت قاهرتها الأمم وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم، ولها خصوبة النيل التي جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها، وأرضها مسيرة شهر لمجد السير، كريمة التربة مؤنسة لنوى الغربة "

وجدير بالذكر أنه في أثناء حكم المماليك البحرية، وبالتحديد في عام ١٣٦٤، ولد المؤرخ أحمد بن علي المقريزي الذي قدر له أن يؤلف موسوعة مهمة عن خطط مصر، وعن القاهرة بوجه خاص، أتاحت لنا التعرف على ما كانت عليه القاهرة ومبانيها منذ أسست حتى القرن

الخامس عشر، ووصف مساجدها ومدارسها وحماماتها .. الخ وبعضها باق إلى اليوم يتحدث عن جمال عمارة القاهرة وفنونها البديعة.

بُناة القاهرة المملوكية

السلطان الظاهر بيبرس البندقداري

السلطان المنصور قلاوون هو البنَّاء الأول في أسرة آل قلاوون التي حكمت حوالي المائة سنة، وقد حكم المنصور قلاوون حتى توفي وهو في السبعين وكان ذلك في نوفمبر ١٢٩٠، مات وقد خلّف طائفة من العمائر النادرة التي رصع بها حي الجمالية، نذكر منها مدرسة الجليلة وقبته أي ضريحه وأخيراً بيمارستانه الفريد (مستشفاه) ، الذي كان مفخرة العالم الإسلامي. بدئ في بناء البيمارستان في أول ربيع الثاني سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨)، وتم إنشاؤه بعد ثمانية أشهر، ومازال جزء منه قائماً إلى اليوم، وقد جدد عام ٧٢٦ هـ (١٣٢) أيام الملك الناصر مُحَمَّد بن السلطان قلاوون، وجدده مرة أخرى الأمير عبد الرحمن كتخدا.. وصفه المؤرخ المقريزي، أنه دار ذات إيوانات أربعة وصحن واسع، ولما أنجزت عمارتها وقف عليها الملك المنصوري، وقال: "قد وقفت هذا على مثلي فمن دوني" وجعله وقفاً على الملك والمملوك والجندي والأمير والكبير والصغير والحر والعبد والذكور والإناث، ورتب فيه العقاقير والأطباء وساير ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض، وجعل به فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى، وقرر لهم المعاليم ونصب الأسرة للمرض وفرشها بجميع الفرش المحتاج إليها في المرض، وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعاً، فجمل أواوين الماريستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها، وأفرد قاعة لمرضى

الرمد، وقاعة للجرحى وقاعة لمن به إسهال، وقاعة للنساء، ومكاناً للمبردين، يقسم بقسمين، قسم للرجال وقسم للنساء وجعل الماء يجري في جميع هذه الأماكن وأفرد مكاناُ لطبخ الطعام والأدوية والأشربة، ومكانا لتركيب المعاجين والأكحال والشوافات ونحوها، ومواضع يخزن فيها الحواصل، وجعل مكانا يفرق فيه الأدوية والأشربة، وكانا يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء دروس الطب ولم يحص عدد المرضى بل جمله سبيلا لكل من يرد عليه من غني وفقير، ولم يحدد مدة لإقامة المريض به بل يرتب منه لمن هو مريض بداره سائر ما يحتاج إليه، وقد أوقف عليه الملك المنصور من الأملاك بديار مصر وغيرها ما يقارب ألف ألف درهم في كل سنة"

وقد عمل في هذا المستشفى عدد كبير من أشهر أطباء مصر، نذكر من بينهم ابن الأكفاني مُحَّد بن إبراهيم، عمر بن منصور بن عبد الله السراج (ت ١٤٣١) عبد الوهاب بن مُحَّد تاج الدين الشاوي (ت ١٤٤٧)، زين الدين عبد المعطي كبير جراحي الماريستان، شهاب الدين بن الصايغ، مدين بن عبد الرحمن القيسوني، وغيرهم .

وعندما زار الرحَّالة ابن بطوطة مصر في عام ٧٢٧ هـ/١٣٢٧م، شاهد الماريستان المنصوري، فقال عنه: "أما الماريستان الذي بين العصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون، فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصى، ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم"

وقد ذكر هذا المستشفى كبير من الرحالة الأجانب الذين وفدوا إلى مصر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، والجدير بالذكر أن الملوك

والأمراء تعهدوا هذا المستشفى الجليل بالعمارة والإصلاح والتجديد والإنفاق عليه بسخاء إلى أيام حملة بونابرت، وبالرغم مما أدخل على العلاج الطبي الحديث في مصر خلال القرن التاسع عشر، فقد استمرت أبواب هذا الماريستان مفتوحة حتى بداية القرن الحالي، فقد تحول إلى مستشفى للرمد، ويعرف اليوم بمستشفى قلاوون، فهو إذن أقدم مستشفيات العالم .



واجهة مسجد وضريح السلطان قلاوون

النَّاصر محمد بن قلاوون.. البنَّاء العظيم

تولى سلطنة مصر ثلاث مرات، كانت السلطنة الأولى في عام ٦٩٣هـ (١٢٩٣م)، والسلطنة الثانية في عام ٦٩٨هـ (١٢٩٩م)، والسلطنة الثالثة في عام ٧٠٩هـ (١٣٠١م)، وقد دامت هذه المرة حتى عام ١٣٤١م.

كان الناصر مُحَمَّد بن قلاوون يحب العمارة، فلم يزل منذ أن قدم من الكرك بالأردن إلى أن مات مستمر العمارة، فجاء تقيؤ مصروفه كل يوم مدة هذه السنين ثمانية آلاف درهما، وكان ينفق على العمارة المائة آلف درهما، فإذا رأى فيها مالا يعجبه هدمها كلها، وجددها على ما يختار.

وننقل للقراءة صفحة في حركة التعمير والبناء في عصر هذا السلطان البناء[٣] وبخاصة في القاهرة. "أنشأ الناصر مُحَمَّد، الميدان تحت القلعة وأجرى له المياه، وغرس فيه النخل والأشجار ولعب فيه بالكرة في كل يوم ثلاثاء مع الأمراء والخاصكية، وعمَّر القصر الأبلق[٤]، وعمَّر الجامع بالقلعة والقاعات السبع[٥] التي تشرف على الميدان وباب القرافة لأجل سكنى سراريه وعمَّر المطبخ، وجعل العمائر كلها بالحجارة خوفاً من الحريق وعزم أن يغيِّر باب القلعة المعروف بالمدرج، ويعمل له دركاة فمات قبل ذلك

[٣] المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، القسم الثاني من الجزء الثاني ص ٥٣٧ ــ ٥٤٥ نشره وحققه الدكتور/ محمد مصطفى زيادة، أنظر "المجلة المصرية للدراسات التاريخية" المجلدان ٩ و١٠ ص ٢٤١ـ ٢٥٠ عام ١٩٦٠ـ ١٩٦٢

[٤] أنشأه الناصر محمد ق ٧١٣ ه /١٣١٣ وانتهت عمارته سنة ٧١٤/ ١٣١٤ وقد اندثر القصر وكان قائما في الجهة الغربية من القلعة.

[٥] كانت القاعات السبع بالقلعة تشرف على باب القرافة ومكانها اليوم قصر الجوهرة (الخطط المقريزية جـ ٢ ص ٣١٢).

وعمل في القلعة حوش الغنم وحوش البقر.. وغير ذلك فأوسع فيها نحو خمسين فداناً وعمَّر الخانكاء بناحية سرياقوس، ورتَّب بها مائة صوفي، لكل منهم الخبز واللحم والطعام والحلوى وسائر ما يحتاجون إليه، جلب الأشجار من دمشق وغيرها فصار به عامة فواكه الشام، وحفر الخليج الناصري خارج القاهرة[٦] حتى أوصله إلى سرياقوس، فعمَّر على هذا الخليج عدة قناطر: منها قنطرة بفمه (أي فم الخليج) عند الميدان أنشأها الفخر ناظر الجيش، وقنطرة قدادار وإلى القاهرة وغير ذلك فصار بجانبي الخليج عدة بساتين وعمرت به أرض الطبَّالة بعد خرابها من أيام العادل كتبغا في سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦/ ٩٧م) وبقيت خرابا إلى ما بعد سنة ٧١١ هـ (١٣١١م) حتى أخذ الناس في سكناها تدريجياً.

وعمرت في أيام السلطان الناصر جزيرة الفيل وناحية بولاق بعد ما كانت رمالاً ترمي بها المماليك النشاب وتلعب الأمراء فيها بالكرة فصارت كلها دوراً وقصوراً وجوامع وأسواقا وبساتين، وبلغت البساتين بجزيرة الفيل زيادة على مائة وخمسين بستاناً بعدما كانت نحو العشرين بستاناً، واتصلت العمارة على ساحل النيل من منية السيرج إلى جامع الخطيري إلى حكر ابن الأثير وزريبة قوصون إلى منشأة الكتبة ومنشأة المهراني[٧] إلى بركة الجيش

---

[٦] أمر الناصر بحفره ليعمل بين النيل وخليج القاهرة (المصري) وذلك يزيد الماء في هذا الخليج، وكان فمه بموردة البلاط من بستان الخشاب مارا بأراضي اللوق وبركة قرموط وباب البحر ثم أرض الطبالة وعندها يصب الخليج ماءه في خليج القاهرة، بدئ في حفره في أول جمادي الأولي ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥م وتم حفره في شهرين (النجوم الزاهرة، حاشية جـ ٩ ص ٨٠).

[٧] كان موضع هذه المنشأة فيما بين النيل والخليج المصري، عرفت هذه الخطة باسم الامير سيف الدين بلبان المهراني وكان قد شيد دارا بها ثم أقبل الناس في البناء وأكثروا فيما من العمائر فعمرت الخطة.

حتى كان الإنسان يتعجب لذلك، فإنه كان هذا كله تلال رمل وحلفاء فصار لا يُرى فيه قدر ذراع إلا وفيه بناء.

وعمر في أيام الناصر مُحَمَّد القطعة التي فيما بين قبة الإمام الشافعي إلى باب القرافة[٨] بعد ما كانت فضاءً لسباق خيل الأمراء والأجناد والخدام، فتحصل به اجتماعات جليلة للتفرج عليهم، إلى أن أنشا السلطان تربة الأمير بيبغا التركماني، فعمر ذلك كله ترباً وخوانك حتى صارت العمائر متصلة من باب القرافة إلى بركة الحبش لا يوجد بها قدر ذراع بغير عمارة، وتنافس الأمراء في ذلك حتي بلغوا في عمارته مبلغاً عظيماً.

وعمر في أيامه أيضاً الصحراء التي فيما بين القلعة وخارج باب المحروق إلى قبة النصر، وكان هناك ميدان القبق من عهد الظاهر بيبرس برسم ركوب السلطان وعمل الموكب به وبرسم سباق الخيل وأول من عمر فيه الأمير قراسنقر تربة وعمل لها حوض ماء للسبيل (يعلوه مسجد) ثم اقتدى به الأمراء والأجناد وغيرهم حتى امتلأ الميدان من كثرة العمائر.

وعمَّر السلطان لمماليكه عدة قصور: منها قصر الأمير طقتمر الدمشقي بحدرة البقر[٩] وبلغ مصروفه ثمانمائة ألف درهما، فلما مات طقتمر أنعم به السلطان على الأمير طشتمر حمص أخضر فزاد فيه، ومنها قصر

---

[٨] أحد أبواب القلعة (الخطط جـ ٢ ص ٢٠٤) وهو خلاف باب القرافة من أبواب القاهرة الخارجية القديمة التي كان يخرج منه أهل القاهرة إلى قرافة الإمام الشافعي، وكان باب القرافة بسور القلعة القبلي بين البرجين المعروفين ببرج المطار، وقد سد الخارجي في أيام العثمانيين.

[٩] هو بذاته بيت طشتمر الساقي حمص أخضر، وكان واقعاً بالمنطقة التي تحد اليوم من الغرب بشارع الحلمية وقد أزيل القصر وملحقاته.

الأمير بكتمر الساقي[10] على بركة الفيل فعمل أساسه أربعين ذراعاً، وارتفاعه من الأساس مثلها، فزاد مصروفه على ألف ألف درهما، ومنها الكبش حيث كانت عمارة الملك الصالح نجم الدين أيوب، فعمله السلطان سبع قاعات برسم نزول بناته وسراريه فيها للتفرج على ركوب السلطان إلى الميدان (الناصري) لا الكبير، ولم ينحصر ما أنفق فيها لكثرته، ومنها إسطبل الأمير قوصون بسوق الخيل تحت القلعة حيث كان إسطبل الأمير سنجر البشمقدار، وإسطبل سنقر الطويل، ومنها قصر بهادر الجوباني[11] بجوار زاوية البرهان الصائغ بالجسر الأعظم تجاه الكبش، ومنها قصر قطلوبغا الفخري[12] وقصر الطنبغا المارديني، وقصر يلبغا البحياوي[13] وهو أجل ما عمره من القصور صرف على أساسه ثمن جير وحجر وأجرة مائة وثلاثين ألف درهما وعمل نزوله في الأرض ثلاثين ذراعاً، واحتيج فيه إلى زنة عشرة آلاف درهم لازورد لدهان سقوفه ثمنها مائة ألف درهما..

وعمَّر الأمراء في أيام السلطان الناصر عدة دور: منها دار الأمير ايدغمش أمير آخور[14] ودار قبغا، ودار طقزمر، ودار بشتاك على النيل

---

[10] كان قصر بكتمر من أعظم مساكن مصر وأجلها قدراً وموضعه على بركة الفيل تجاه الكبش (الخطط المقريزية جـ ٢ ص ٦٨).

[11] اندثر هذا القصر وكان واقعا في الجهة الغربية من جامع لاجين اللالا المعروف بجامع ابي سعيد حقمق بشارع عبد المجيد سليم بالسيدة زينب .

[12] يرجح أن هذا القصر كان بحارة برجوان بالقرب من جامع زين الدين عبد الباسط بن خليل وقد اندثر.

[13] أمر الملك الناصر محمد ببناء هذين القصرين للاميرين المذكورين لمحبته لهما وليكونا بالقرب من قلعة الجبل، شيدهما مكان سوق الخيل بالرميلة تحت القلعة، وفي ٧٥٧ ه/ هدم السلطان حسن بن محمد هذين القصرين وأدخل أرضهما في مسجده الكبير.

[14] موقع هذه الدار في الجزء الشرقي من مسجد السلطان حسن وقد اندثرت.

وهي تشتمل على ربع كبير فوق زريبة بجوار جامع طيبرس وقصر بشتاك بالقاهرة[١٥].

وأنشا السلطان الناصر مُحَّد الميدان الكبير على النيل، وخرب ميدان اللوق الذي أنشأه الظاهر بيبرس وعمله بستاناً حملت إليه الأشجار من دمشق وغيرها فكانت فواكهه تحمل إلى الشراب خاناه السلطانية، ثم أنعم به على الأمير قوصون فبنى تجاهه على الزربية المعروفة بزربية قوصون، واقتدى به الأمراء في العمارة فأخذ قوصون بستان بهادر رأس نوية ومساحته خمسة عشر فداناً وحكره للناس، فبنوه دورا، وعرف بحكر قوصون، وحكر الناس وسكنوا فيه وحكر الأمير طقزدمر بجوار الخليج بستاناً مساحته ثلاثون فداناً وبنى له قنطرة عرفت به وعمل هناك حماماً وحوانيت فصار حكرا عظيماً للمساكين، وحكر الأمير أقبغا عبد الواحد بستانا بجوار بركة الفيل فعمر عمارة كثيرة بعد ما كان مقطع طريق فصار قدر مدينة كبيرة، وأخذ بقية الأمراء جميع ما كان من البساتين والجنينات ظاهر القاهرة وحكروها وحكرت الدادة حدق (المعروفة باسم ست مسكة القهرمانة) حكرين عرفا بها، فجاءا من أحسن الأحكار وأنشأت بكل واحد منهما جامعا تقام به الجمعة، فأنافت الأحكار التي استجدت في أيامه على ستين حكرا حتى لم يوجد موضع يحكر، واتصلت العمارات من خارج القاهرة إلى جامع ابن طولون والمشاهد.

---

[١٥] مازال جز من هذا القصر باقيا بالنحاسين، بناء الأمير بشتاك في سنة ٧٣٥ ه وائمه بع ثلاث سنوات وكان ارتفاعه أربعين ذراعا والماء يجري من اعلاه وله شبابيك تشرف على شارع القاهرة الاعظم.

وفي أيام الناصر مُحَمَّد، عمَّر الأمير قوصون بالقاهرة وكالة حيث كانت دار تمويل البوعاني[١٦] وعمَّر الأمير طشتمر حمص أخضر ربما بجواره حدرة البقر وهو الذي عمَّر قيسارية الحريريين بجوار الوراقين من القاهرة، وعمَّر الأمير بكتمر الساقي بمدينة مصر ربعين، وحوانيت على النيل ودار وكالة ومطابخ سكر، وعمَّر الأمير طقزدمر دار التفاح خارج باب زويلة والربع الذي فوقه. وتجددت عدة جوامع في أيامه أنافت على ثلاثين جامعاً: منها الجامع الناصري بقلعة الجبل، والجامع الجديد الناصري.



مسجد السلطان حسن والرفاعي

[١٦] ورد وصف لهذه الوكالة التي بناها الامير قوصون في الخطط للمقريزي جـ٢ ص ٩٣ جاء فيه أن هذه الوكالة في معني الفنادق والخانات ينزلها التجار ببضائع الشام من الزيت السيرج والصابون والدبس والفستق والجواري، ونحو ذلك، وموضعها فيما بين الجامع الحاكمي ودار سعيد السعداء وكانت أخيرا تعرف بدار تمويل البوعائي فخربها وما جاورها الأمير قوصون وجعلها فندقا كبيرا إلى الغاية، وبدائره عدة مخازن.

ظاهر مصر على النيل، وجامع المشهد النفيسي، وجامع الأمير كراي المنصوري بآخر الحسينية، وجامع الأمير طيبرس نقيب الجيش على النيل بجوار خنكاته، وهو الذي عمَّر أيضاً مدرسة بجوار الجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع الأمير بدر الدين مُحَمَّد بن التركماني بالقرب من باب البحر، وجامع الفخر ناظر الجيش على النيل فيما بين بولاق وجزيرة الفيل، وقد عمَّر جامعا آخر خلف خص الكيالة ببولاق، وجامعا ثالثا بالروضة، وجامع كريم الدين خلف الميدان، وجامع شرف الدين الجاكي بسويقة الريش وجامع الأمير حسين بالحكر[17] وبنى له قنطرة على الخليج وجامع الأمير قيان الرومي بقناطر الوز، وجامع دولت شاه مملوك العلائي بكوم الريش[18] وجامع الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك بطرف الحسينية، وجامع ناصر الدين الحراني الشربيني بالقرافة، وجامع الأمير أقسنقر شاد العمائر قريبا من الميدان، وجامعا خارج باب القرافة عمَّره جماعة من العجم وجامع التوبة بباب البرقية عمَّره مغلطاي أخو الأمير ألماس، وجامع بنت الملك الظاهر بيبرس بالجزيرة المستجدة، وعمّر ما حوله أملاكا كثيرة، وجامع الأمير ألماس في الحلمية القديمة، وجامع أخي صاروجا بشون القصب، وجامع الحاج آل ملك بالحسينية، وجامع الأمير بشتاك على بركة الفيل تجاه حانكاه، وجامع ست حدق فيما بين قنطرة السد[19] وقناطر السباع، وجامع ست مسكة قريبا من قنطرة آقسنقر وجامع الأمير الطنبغا

---

[17] حكر جوهر النوبي (النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٢٠٢ حاشية ٥)

[18] ورد هذا الجامع باسم جامع كوم الريش في خطط المقريزي جـ ٢ ص ٣٢٥

[19] الست حدق والست مسكة اسمان لواحدة، والست حدق كانت تعرف أولا بهذا الاسم فقط وقد أنشأت الجامع المعروف باسمها هذا سنة ٧٢٧ه، فلصق بها ثم اشتهرت لسبب ما بعد هذا باسم الست مسكة، فعرف الجامع الثاني بهذا الاسم الثاني وكان بناؤه سنة ٧٤١هـ (الخطط المقريزية جـ ٢ ص ٣١٣ و ٣٢٦).

المارديني بالتبانة، ومسجد مظفر الدين بن الفلك بسويقة الجميزة من الحسينية، وجامع جوهر السحرتي[20] قريبا من باب الشعرية وجامع فتح الدين مُحَمَّد بن عبد الظاهر بالقرافة.

الواقع إنه لثبت فخم من العمائر التي رصعت القاهرة في أيام هذا العاهل

مدرسة السلطان حسن بن قلاون.. جوهرة المدارس

اعتلى السلطان حسن العرش للمرة الأولى في سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧)، وعزله أمراؤه في عام ٧٥٢ هـ، لكنه استطاع خلع أخيه واستعاد عرشه في عام ٧٥٥ هـ وبقى حاكما حتى ٧٦٢ هـ (١٣٦١)، ولم يكن حسن محبوبا أو جديرا بالحكم ولكنه خلف عمارة جليلة خلدت اسمه، وهي تلك المدرسة/ المسجد خير أبنية المماليك جميعاً وهي مدرسة السلطان حسن .

إنه أحمل مساجد القاهرة، شُيِّد على نظام المدرسة، وكان موضعه بيت الأمير يلبغا اليحياوي وابتدأ السلطان عمارته في سنة سبع وخمسين وسبعمائة وعمله في أكبر قالب وأحسن هندام وأضخم شكل فلا يعرف في بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحاكي هذا الجامع، أقيمت العمارة فيه مدة ثلاث سنوات بدون عطلة يوم واحد ورُصد لمصروفه كل يوم عشرون ألف درهما (ستمائة جنيها)، ولقد قيل أنه صرف على القالب

[20] الثابت من اللوحة التذكارية بباب هذا الجامع أنه بني سنة ٧٤٣ هـ أي بعد وفاة الناصر بسنتين على أن ذلك لا يمنع من أن بناءه بدئ في عهد هذا السلطان (النجوم الزاهرة حاشية محمد رمزي جـ ٩ ص ٢٠٩)

الذي بنى عليه عقد الإيوان الكبير مائة ألف درهما وذراع هذا الإيوان خمس وستون ذراعا في مثلها، ويقال أنه أكبر من إيوان كسرى بالمدائن في العراق بخمسة أذرع وقبته العظيمة لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها، وكذلك المنبر الرخامي الذي لا نظير له والبوابة العظيمة وقد عزم السلطان على أن يبني أربع منائر يؤذن عليها فتمت ثلاث منها إلى أن كان يوم السبت السادس من شهر ربيع الآخر سنة ٧٦٢ هـ فسقطت المنارة القريبة من المدخل فهلك تحتها نحو ثلاثمائة نفسا، فأبطل السلطان بناء هذه المنارة ونظيرتها، ولما سقطت المنارة لهجت عامة مصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة؛ فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد بن على بن محم السبكي في سقوطها:

أبشر فسعدك يا سلطان مصر أتى	بشـــيره بمقـــال ســـار كالمثـــل
إن المنـــارة لم تســـقط لمنقصـــة	لكـــن لســـر خفـــي قـــد تبـــين لي
من تحتها قرئ القرآن فاستمعت	فالوجـد في الحـال أداهـا إلى الميـل

واتفق أن قُتل السلطان بمكيدة دبرها بعض كبار أمرائه بعد سقوط المنارة بثلاث وثلاثين يوما، ومات قبل أن يتم رخام هذا الجامع فأتم قسما منه بشير الجمدار[٢١]، ويبلغ ارتفاع جدران هذا المسجد **١١٣** قدماً مبنية بالحجارة المنحوتة الكبيرة المأخوذة من أنقاض الأهرام، وتحلي النوافذ العديدة واجهته الممتدة، وأجمل مظاهر الجامع طنفه الفخم المكون من ست وصلات من المقرنصات واحدة تعلو الأخرى، ويتوجه جدرانه

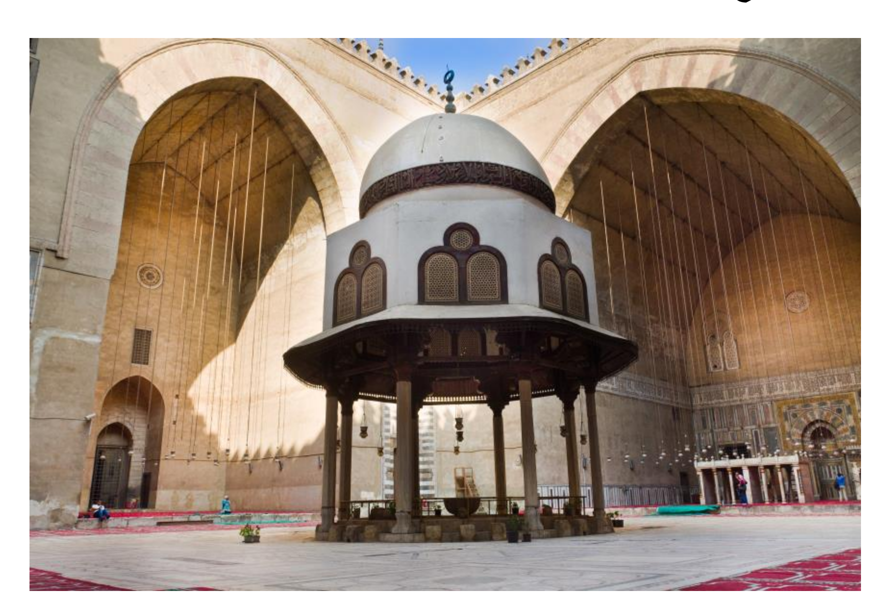
[٢١] كشف الأستاذ حسن عبد الوهاب في نوفمبر ١٦٤٤ عن اسم مهندس هذا المسجد، محمد ببلبك مكتوبا في الطراز الجصي بالمدرسة الحنفية، تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ١٧٦- ١٨١.

الشامخة، بينما تزين مدخل الجامع تلك النقوش القوية والزخارف الهندسية والأعمدة ذوات التيجان المقرنصة. ولا يقل داخل الجامع أبهة ورونقا عن خارجه؛ فالكتابات الكوفية والعربية المنقوشة على الجدران تزينه وتزيده حسنا وجمالا، في مقصورة القبر كتبت آية الكرسي بالكوفية على الجدران الأربعة على ألواح الخشب الثمين، وتعلو المقصورة القبة الجديدة، وهي ليست بقبة الجامع الأصلية، فقد تهدمت في عام ١٦٦٠ وكان قد وصفها "بيترويلافالي" الرحَّالة لما زار القاهرة عام ١٦١٦ م.

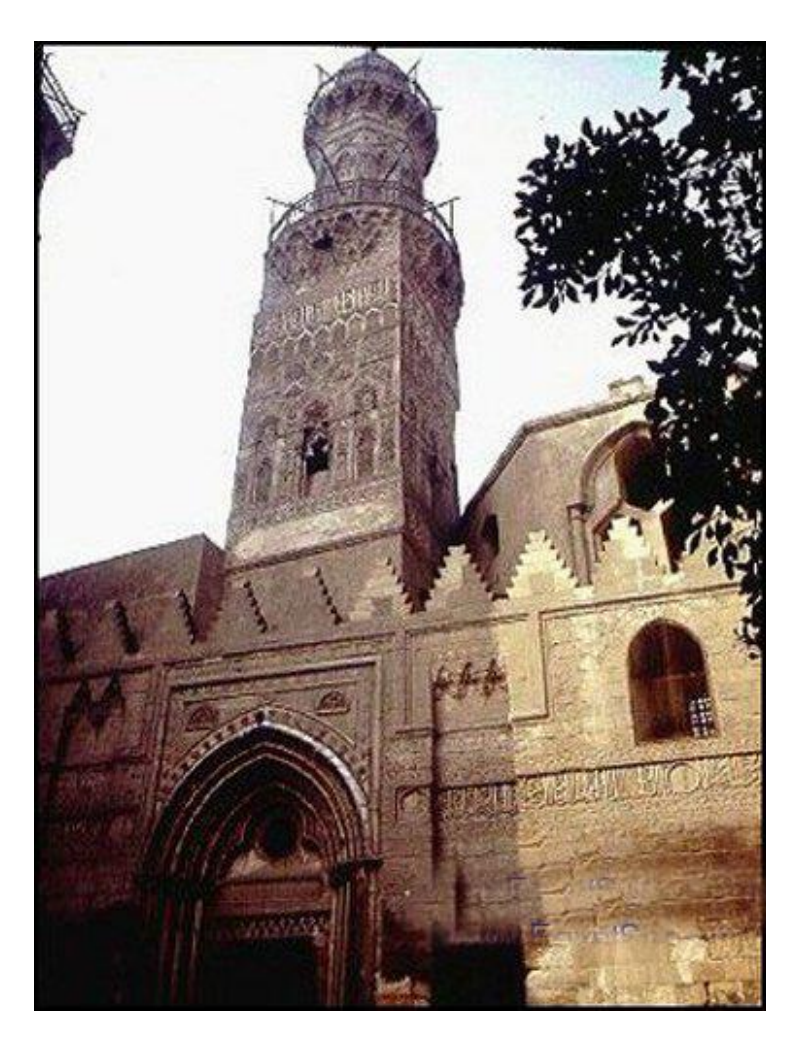
هذا وأكثر مشكاواته النحاسية ومصابيحه الزجاجية المطلية بالميناء لا تزال محفوظة في متحف الفن الإسلامي، ولما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ في عمارة جامعه بجوار باب زويلة اشتري باب الجامع النحاسي ونقله إلى جامعه عام ٨١٩ هـ/ ١٤١٦.

وكان هذا الجامع مقاوما لقلعة الجبل فكلما تكون فتنة بين زعماء الدولة حتى يصعد على سطحه عدة أمراء وغيرهم ويبدأ الرمي منه على القلعة فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق وأمر بهدم البرج الذي كان يصعد منه إلى المنارتين، ويصل الإنسان عن طريق هذا الدرج الى السطح الذي كان يرمى منه على القلعة وهدمت البسطة العظيمة والدرج الذي كان بجانبي هذه البسطة أمام باب الجامع حتى لا يمكن الصعود إليه، وسُد من وراء الباب النحاسي وفتح شباك من شبابيك أحد مدارس هذا الجامع الأربعة، وامتنع صعود المؤذنين إلى المنارتين، وبقي الأذان على درج هذا الباب ومع ذلك فقد استمر الجامع مركزا للمناوشات وتبادل الطلقات

لفترة طويلة ولا توال آثار بعض "الجلل" باقية عليه للآن، وقد ذكر "ستانلي لين بول" أن إحدى مئذنتي الجامع كانت تتصل بسور القلعة بحبل كان يلعب عليه "بهلوان أوروبي" تسلية للجماهير التي كانت تفد لمشاهدة مخاطراته، ومع كل ما مر بهذا الجامع الخالد من الحوادث والذكريات والسنين والأيام لم يزده إلا عظمة ووقارا، بالرغم مما ظهر على وجهه من ملامح الشيخوخة، وهو لا يزال أثمن وأفخر أثر إسلامي خلفه لنا أبناء القرن الرابع عشر.



صحن مدرسة مسجد السلطان حسن بالقلعة (١٢٥٦– ١٢٦٢)



مئذنة مسجدي الناصر محمَّد بن قلاوون ومحمَّد على

بناء والمماليك الجراكسة

(1382-1517)

بالرغم من أصل هؤلاء المماليك، وأنهم كانوا رقيقا اشتراهم السادة من أسواق الرقيق، فقد أظهروا في معيشتهم صفات كثيرة نبيلة منها حبهم لبناء العمائر الجملية فدلوا على ذوق سليم ورفاهية بالغة. فكان برقوق والمؤيد وجقمق وقايتباي والغوري مولعين بمجالس العلم والأدباء فضلا عن شغفهم بالعمارة، شيدوا المساجد، والمدارس، والمستشفيات وغيرها من القباب والأضرحة الجميلة التي مازالت تزدان بها القاهرة.



قبة سودون أمير مجلس بقرافة المماليك القبلية

وسنعرض الآن ما بناه كل من هؤلاء البنائين المماليك من سلاطين وأمراء وسراة: يقابلنا الملك الظاهر أبو سعيد برقوق أول ملوك الجراكسة. كان مملوكا للأتابك يلبغا فأعتقه وعينه في كثير من المناصب، ومنذ ذلك الحين ابتسم له الحظ حتى ولي ملك مصر سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢) وظل ملكا حتى توفاه الله سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩) وأهم ما بناه المسجد الذي يعرف باسمه وهو ملاصق لمدرسة الناصر مُحَمَّد بن قلاوون من الجهة الشمالية، وقد تآلفت من واجهتيهما ومن واجهة تربة مدرسة السلطان قلاوون مجموعة نبيلة من أجمل المباني الأثرية في القاهرة؛ ففي الطرف البحري منها مئذنة ضخمة متناسبة الأبعاد لبست دورتها الوسطى بقطع من الرخام. والمسجد مشيد على أسلوب المدرسة المتعامد، وتطل إيواناته الأربعة على صحن مكشوف وأكبرها إيوان المحراب. وتعلو التربة قبة ذات أركان مقرنصة غاية في الإتقان. والمعروف أن برقوق لم يدفن في هذه التربة بل دفن في إحدى ترب خانقاه ابنه فرج بن برقوق.

خانقاه الناصر فرج بن برقوق (١٤٠٠-١١)

بدأ في بنائها الملك الناصر فرج بن برقوق، (ولد سنة ١٣٨٩م واستقر في الملك بعهد من أبيه في يونيو سنة ١٣٥٨ وحكم حتى قتل في سنه ١٤١٢)، سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٨/٩٩) وانتهى منها سنة ٨١٣ هـ (١٤١٠/١١) وهي بناء ضخم لا يقتصر على تربة، بل وضع تصميمها ونفذ على أن يخدم أغراضا هامة متعددة، فهي مدرسة تدرس فيها العلوم الشرعية ومسجد جامع فسيح الأرجاء وتربة لآل برقوق، وخانقاه فخمة

استغرق بناؤها حوالي الاثنتي عشرة سنة. وبلغ من اهتمام الناصر فرج بها أنه جعل ما حولها مدينة أخرى عامرة بأسواقها وخاناتها وحماماتها، ولكنه مات قبل أن يدرك كل غايته.[22]

ففي طرفي هذه المجموعة البحري والقبلي سبيلان يعلوهما مكتبان أنيقان لتحفيظ الأبناء اليتامى القرآن. ومما يزيد الواجهة الغربية جمالا مئذنتان تقوم إحداهما على يمين المكتب البحري والأخرى على يسار المكتب القبلي. أما الواجهة الشرقية فتتكون من قبتين شامختين متماثلتين رسما وحجما تكتفان طرفي هذه الواجهة، وتتوسطهما قبة ثالثة أصغر منهما حجما تعلو المحراب. وقد حليت أسطح القباب بنقوش بارزة متعرجة على شكل دالات نقشت في الحجر .

وقد دفن بالقبة البحرية الملك الظاهر برقوق (ت ٨٠١ هـ) وأولاده ومنهم المنصور عبد العزيز (ت ٨٠٩ هـ). وفي القبة القبلية ابنة الناصر فرج (ت ٨٨٧ هـ) وخوند حريز (ت ٨١١ هـ).

وللسلطان فرج بن برقوق زاوية تقع على رأس تقاطع شارع تحت الربع بقصبة رضوان، بناها جمال الدين يوسف الاستادار بأمر السلطان سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨) وقد لحق بهذه الزاوية سبيل جميل.

[22] محمود أحمد : دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة، ص ١٥٠-١٥٢.

السلطان البنّاء المؤيد شيخ

وهذا واحد آخر من بناة القاهرة : الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الجركسي الأصل. قدم إلى القاهرة في أول سنة ٧٨٣ هـ فاشتراه محمود اليزدي تاجر المماليك؛ ولذلك عرف بالمحمودي، وقدمه إلى الظاهر برقوق وقت أن كان أتابكا فأعتقه وعلمه الفروسية وعينه في جملة وظائف.. وفي عام ٨١٥ هـ (١٤١٢) ولي ملك مصر وبقي به الى أن توفاه الله في يناير سنة ١٤١٢.

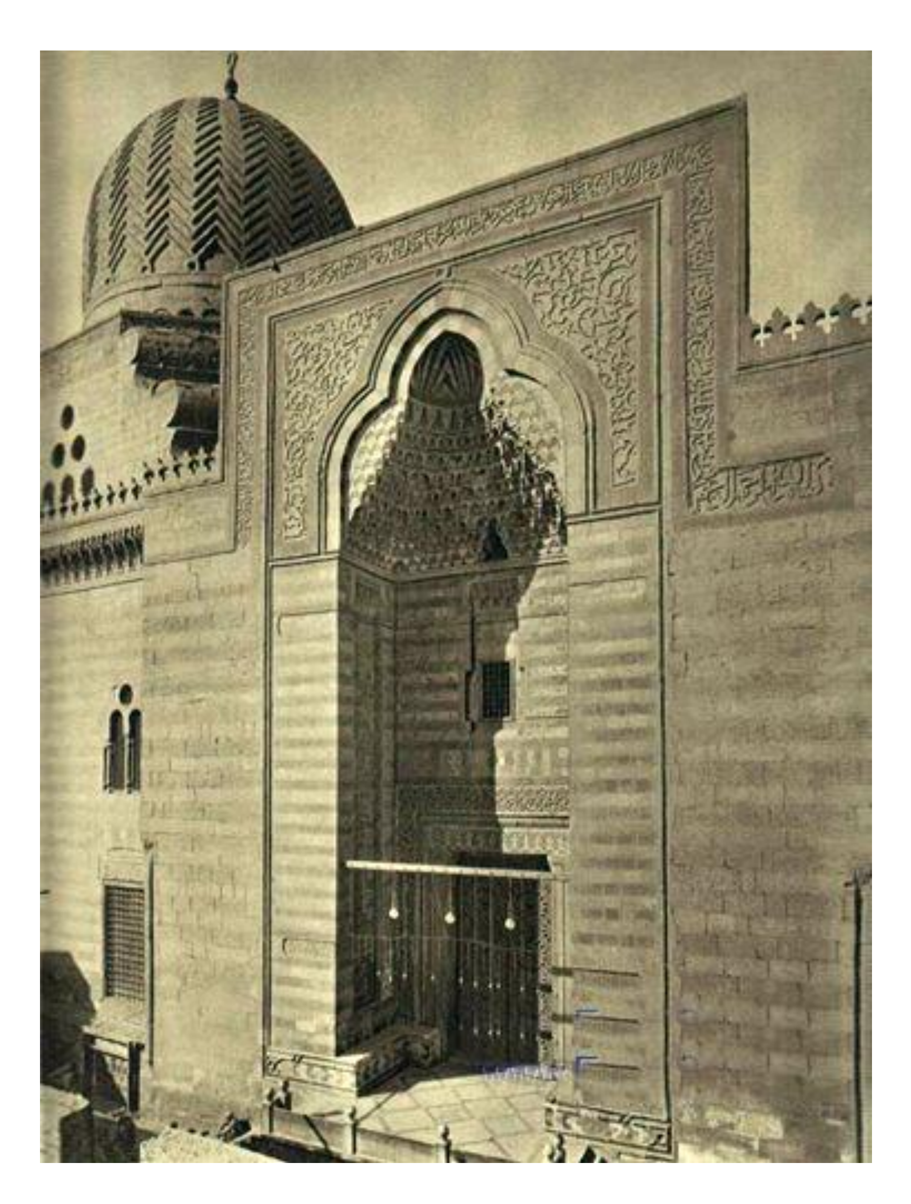
يقوم مسجده الجليل بجوار باب زويلة، وفي شارع السكرية، واستغرق بناؤه خمس سنوات، من عام ١٤١٥ الى ١٤٢٠، وكان له مكتبة قيمة ومدرسون لتدريس العلوم الدينية، يمتاز بمئذنتيه المنفصلتين عنه، فهما تقومان على بدنتي باب زويلة، وتقوم واجهة الجامع القبلية على أساس السور القبلي، وواجهته الشرقية هي الواجهة الرئيسية وفي نهايتها البحرية سلم يؤدي إلى مدخل جميل محلي بالرخام، والكتابات الكوفية، ومغطي بالمقرنصات، وفي جداري الدركاة البحري والقلبي، بابان متقابلان، أحدهما يؤدي إلى حجرة بها المقبرة التي دفن بها السلطان وبعض أفراد أسرته، ويعلو المقبرة قبة سطحها الخارجي محلى بزخارف على شكل دالات. وبالجانب القبلي للمقبرة باب يوصل إلى الإيوان الشرقي للجامع. وجزء من جدران هذا الإيوان مكسو بوزرة جميلة من الرخام تعلوها كتابات

ونقوش مذهبة تصل إلى السقف، وبه محراب يجاوره منبر لطيف الصنعة، وسقف هذا الإيوان محمول على عقود تتكئ على أعمده من الرخام.

وسبب بناء هذا الجامع في مكانه المعروف، يرجع الى أن شيخ المحمودي كان حبس أثناء تمرده ضد السلطان فرج في سجن يكون جزءا من السور الفاطمي، وقاسى العذاب فيه، فلما أصبح سلطانا أمر بهدم السجن وشيّد محله مسجده الكبير الذي يزين الحي بأكمله

وللملك المؤيد بيمارستان شيده فيما بين (١٤١٨- ١٤٢٠) بدرب اللبان، في المكان الذي عرف قديما بالصورة تجاه طلبخان قلعة الجبل حيث كانت مدرسة الأشرف شعبان بن حسين التي هدمها الناصر فرج بن برقوق. ويقوم باب البيمارستان الآن حيث كان باب المدرسة .

أنشأه الملك المؤيد شيخ وعملت مصاريفه من أوقاف جامع المؤيد الذي كان شيّده، ولما توفي المؤيد (٨٢٤ هـ) تعطل البيمارستان قليلا ثم سكنه طائفة من العجم وصار منزلا للرسل الوافدين من خارج البلاد إلى السلطان ثم عمل فيه منبر، ورُتب له خطيب وإمام ومؤذنون وبواب وقومة، وأقيمت به الجمعة في عام ٨٣٥ هـ (١٤٢٣) فاستمر منذ ذلك الحين مسجدا. وبنى السلطان حماما بالقرب من المسجد عرف بحمام السلطان المؤيد (١٤٢٠).



باب المسجد لضريح السلطان قايتباي

البنّاء السلطان برسباي

هو السلطان الملك الأشرف برسباي أحد مماليك الظاهر برقوق، ولي مصر سنة ١٤٢١ وتوفي في سنة ١٤٣٧ ودفن بتربته بالقرافة الشرقية. أما مسجده ففي الأشرفية بالقرب من الصاغة وتتكون واجهته الشرقية الكبيرة من سبيل وكتاب وباب تجاوره مئذنة، الباب الرئيسي مغشي بالنحاس المخرم المزخرف وتصميم المسجد على مثال المارس المتعامد، وتطل أواوينه الأربعة على صحن مكشوف.

أما مدفن الأشرف برسباي ففي القرافة الشرقية جنوبي خانقاه وتربة السلطان برقوق ويتوصل اليه من سلم يؤدي إلى مدخل تعلوه مئذنة جددت حديثا. ويلاحظ أن أعمال الرخام في المدفن تفوق نظيرها حتى في ضريح السلطان قايتباي، وأمام المحراب تركيبة من الرخام فوق التربة التي دفن فيها الأشرف برسباي مع زوجته، ولبرسباي مسجد كبير بالخانكاه.

مسجد ومدرسة جوهر اللالا:

يقوم هذا المسجد على ربوة عالية شمالي مسجد الرفاعي، وهو مع المباني الأثرية المجاورة المتناسقة تزين حقا ميدان صلاح الدين. أنشأه الأمير جوهر اللالا من أمراء الأشرف برسباي قبل توليه حكم مصر، يقوم على قطعة أرض غير منتظمة الشكل، وقد عرف مهندس الجامع كيف يفيد من تلك المساحة، فأنشأ عليها مسجدا ومدرسة وسبيلا وميضأة ومقبرة. يدخل الزائر إليه من الباب إلى دركاة مربعة بصدرها صفة مفروشة بالرخام،

سقفها مموه بالذهب والألوان، وعلى يمين هذه الدركاة باب السبيل والمدرسة، وإلى اليسار باب آخر يؤدي إلى ممر مستطيل ينتهي بباب يوصل إلى داخل مسجد، وهو مشيد على طراز المدارس، به أربعة إيوانات، اثنان منها كبيران، والآخران صغيران.. وفي الناحية القبلية الشرقية قبة صغيرة بها قبر المنشئ.

مساجد القاضي زين الدين يحيى

ولد الأمير زين الدين يحيى بمصر في القرن الخامس عشر الميلادي، فنشأ بها وتدرب في وظائف الدولة وتدرج فيها إلى أن عين ناظراً لديوان المفرد (الخاصة) غير مرة، ثم عين ناظرا للإسطبل السلطاني، ومحتسبا للقاهرة (محافظا). وفي دولة السلطان الظاهر حقمق تنكرت له الدنيا، فنكب وعذب واستخلصت منه أموال كثيرة وقاسى أهوالا شديدة، ثم أرسل إلى المدينة الشريفة فبقي بها أشهرا عاد بعدها الى مصر ولزم بيته. ولما ولي الملك الأشرف قايتباي ملك مصر صادر أمواله أيضا، وحبسه بالقلعة إلى أن توفي ليلة الخميس ٢٨ ربيع الأول سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩) وقد تجاوز الثمانين من عمره ودفن بمسجده الذي سنتكلم عنه، وهذا المسجد يقع في شارع الأزهر عند تلاقيه بشارع الخليج المصري وقد تجلت في واجهته الجنوبية دقة الصناعة.

أنشئ المسجد سنة ٨٤٨ هـ (١٤٤٤) وهو من المساجد التي تحفل بشتى الصناعات الجميلة وله ثلاث واجهات: شرقية وبطرفها القبلي مدفن للمنشئ، وبطرفها البحري المئذنة الرشيقة ذات الدورات الثلاث، وواجهة

بحرية تتكون من باب للميضأة المنخفضة عن مستوى الشارع ويجاوره الباب الرئيسي للمسجد، وواجهة قبلية كشفت في أعقاب فتح شارع الأزهر وكانت مهدمة، فعنيت بها إدارة حفظ الآثار العربية وأعادتها إلى ما كانت عليه. وفي هذه الواجهة باب حافل بالنقوش والكتابات والمقرنصات[٢٣].

ويقع المسجد الثاني للقاضي زين الدين يحيى بشارع الخضرا ببولاق وعرف بجامع المحكمة، لاتخاذه محكمة منذ القرن العاشر الهجري حتى القرن الثالث عشر. وقد بناه في عامي ١٤٤٨ و١٤٤٩ وافتتح للصلاة في سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨) قبل الفراغ من بنائه. ولهذا المسجد ثلاث واجهات رئيسية مبنية بالحجر. يتوسط كلا منها باب: القبلي والبحري منهما متماثلان، واختلف الغربي عنهما: وقد اشتملت تلك الأبواب على مقرنصات منوعة، وزخارف هندسية وتطعيم بالرخام الملون، وكتابات تاريخية. أما المسجد الثالث لهذا القاضي فيقع بالحبانية. وقد فرغ من بنائه في شهر جماد الآخر سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢) . ولهذا المسجد واجهة بحرية تشتمل على الباب ويقوم على يمينها منارة حجرية يجاورها كتاب، وقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بهذا المسجد فأصلحته إصلاحا شاملاً في عام ١٩٠٧ فأعادت اليه بهاءه السابق.

---

[٢٣] حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ، جـ ١ ص ٢٣٤- ٢٤٢.

السلطان البنّاء قايتباي

(1468 – 1495)

كانت السنوات الست الأولى من حكم السلطان قايتباي يسودها الأمن والهدوء، فاستطاع قايتباي أن يشبع ميله إلى البناء، ويرجع الى هذا العهد مسجده، وضريحه وسبيله في القرافة الشرقية (١٤٧٢ – ١٤٧٤)، ثم هناك حوضه، ومقعده، وربعه، وسبيل آخر، وحوض آخر (١٤٧٤ – ٧٥) ثم مدرسته الفخمة بالقلعة الكبش (١٤٧٥)، ومسجد آخر، وخانات، وقصور أخرى نجا بعضها من التدمير. أضف إلى هذا ما أمر بتجديده وإضافته في مباني الأزهر، وقلعة الجبل. وق رغب الأمراء الكبار في بلاط قايتباي أن يقلدوا مولاهم فخلفوا لنا مجموعة من العمائر الجميلة التي رصعوا بها القاهرة ونذكر منها مساجد الأمير قجماس الإسحقي، وأبي بكر مزهر، وأزبك اليوسفي وأزبك بن ططخ الذي هدمت أزبكيته لتفسح مكانا لدار الأوبرا في سنة ١٨٦٩ .

إن طائفة مباني السلطان قايتباي في القرافة تشتمل على أجمل الخصائص والميزات المعمارية التي تتسم بها عمارة دولة المماليك، وما بلغته من السمو والرقي.. وليس هذا الأثر مسجدا فحسب، بل إنه مجموعة مؤلفة من مدرسة وضريح وسبيل، شيدت كلها في انسجام وتناسق وجمال في داخلها وخارجها. أما المئذنة فتعتبر من أجمل مثيلاتها في القاهرة في رشاقتها الجذابة وهي من ثلاث دورات حلي بدن دورتها الأولى بنقوش

وكتابات، وحلي بدن الدورة الثانية بنقوش مورقة، وتقوم الدورة الثالثة على عمد رقيقة.

وواجهة المسجد الرئيسية هي الواجهة البحرية وبها الباب الذي حلي بالرخام الملون والكتابات، وكتب على جانبيه اسم قايتباي وتاريخ عام ٨٧٧ هـ .. وتعلوه دائرتان رخاميتان كتب فيهما: "عز لمولانا السلطان الملك الأشرف قايتباي .. غز نصره". وعلى يسار الباب سبيل تعلوه المدرسة. ولهذا المسجد الأنيق أربعة إيوانات معقودة تطل على الصحن، ويغطيه سقف يتوسطه منور نقش بزخارف ملونة ومذهبة.

وشيد قايتباي مدرسة بالكبش (٨٨٠ – ١٤٧٥) ولها بابان كبيران، نقش على أحدهما: "أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا الأشرف السلطان الملك أبو النصر قايتباي".. ونقش على الباب الثاني كتابة مثلها. وهناك كتابة نقشت على الطنف الداخلي نصها: "أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا السلطان الملك الأشرف قايتباي أعز الله أنصاره، وكان الفراغ من ذلك في مستهل شهر شعبان المبارك سنة ٨٨٦ من الهجرة النبوية"

وهناك في شارع شيخون بالصليبية شيد السلطان قايتباي سبيلا جميلا تعلوه كتابات نصها: "أمر بانشاء هذا السبيل المبارك السعيد من فضل الله تعالى وجزيل عطاء العميم مولانا المقام الشريف السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباي بتاريخ شهر ذي الحجة سنة أربع وثمان مائة".. يعلو السبيل كتاب لتعليم الأطفال وتحفيظهم القرآن، ويعتبر هذا السلطان

أول من أفرد السبيل والكتاب عن المدرسة أو المسجد، ولهذا السبيل واجهتان شامختان كسيتا بالرخام الملون ويعتبر من أجمل أسبلة مصر.

أمراء السلطان قايتباي البناءون

يقابلنا في طليعة هؤلاء: الأمير يشبك الدوادار، وقد شغل أسمى مناصب دولة قايتباي، وقد شغف مثل سيده بالعمارة، وله مآثر في إصلاح الآثار وتنظيم الطرق وتوسيعها وبناء القصور والقباب، كما كان منقبا في المسائل العلمية، وتوفاه الله سنة ٨٨٥ هـ (١٤٨٠). من مبانيه القبة الجميلة بكوبري القبة، أنشأها سنة ٨٨١ هـ ٨٢ (١٤٧٦ – ٧٧م) كما انشأ بجوارها مدرسة وبستانا كبيرا جعلها من أبهج متنزهات القاهرة، وقد حضر الملك الأشرف قايتباي حفلة افتتاح تلك المنشآت (يوليو ١٤٧٨)، فأعجب بها وأثنى على منشئها.

ولم يبق الآن من تلك المباني سوى قبة كسيت جدرانها بوزرة من الرخام الجميل المتنوع الألوان وتنتهي بإفريز كتب عليه بالخط الكوفي المزهر والمربع آيات من القرآن وتاريخ الفراغ من بنائها

وللأمير يشبك قبة أخرى بشارع العباسية تعرف بالقبة الفدواية نسبة إلى طائفة من بلاد الإسماعيلية يستهترون بالموت. وقد أنشا الأمير بجوارها مدرسة وغرس حولها الحدائق، فجعل هذه المنطقة إحدى متنزهات القاهرة بعد أن كانت فضاء موحشا. ومات الأمير يشبك بن مهدي قبل أن يتمها فأكملها السلطان قايتباي وكتب ألقابه في طراز بدائر مربع القبة من الداخل كذلك كتب اسمه أيضا على الباب القبلي لهذه القبة الضخمة التي

تسودها البساطة من الخارج. وتنسب هذه القبة إلى ما بين عامي ١٤٧٩ و ١٤٨١.

الأمير البنّاء قجماس الإسحاقي

هو الأمير سيف الدين قجماس الإسحاقي الظاهري كان مملوكا للظاهر جقمق ونشأ في خدمته وعين في جملة وظائف آخرها وظيفة نائب الشام في دولة الأشرف قايتباي وبقي بها إلى أن توفي سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧) ودفن بالشام. ومن مآثره مسجده بالدرب الأحمر الذي يعتبر من أهم مساجد دولة المماليك الجراكسة. شيّد على طراز المدارس المتعامد، وبه إيوانان كبيران شرقي وغربي، وإيوانان صغيران شمالي وجنوبي، يتوسطهما صحن مغطى بمنور.

إن داخل هذا المسجد ثروة فنية وصناعية، قل أن يكون مثلها ها هي "صنج" العقود وأعتاب الأبواب والجدران تزخر بالحليات والزخارف... كُسي جدار المحراب بوزرة من الرخام إلى ارتفاع كبير يتوسطه المحراب، وفي منتصفه ووسط الوزرة اسم صانعه بشكل زخرفي ونصه: "عمل عبد القادر النقاش"، ويجاور المحراب المنبر المطعم بالعاج والأبنوس وقبة المسجد شاهقة البناء بها قبر الشيخ أحمد أبو حريبة المتوفى سنة ١٢٦٨هـ/ ١٨٥٨، وبهذا الاسم عرف المسجد عند الشعب.

أبو بكر محمد بن مزهر

علامة من علماء عصر قايتباي، ولد سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٦ – ٢٧) بالقاهرة وتلقى العلم عن علماء القاهرة حتى حصل على إجازة التدريس والإفتاء، وولي الوظائف الجليلة، منها ناظر الإسطبل، ثم أضيفت اليها وكالة بيت المال ثم ناظر الجيش، ثم ولي كتابة السر (١٤٦١/ ٦٢) وبقي بهذا المنصب حتى سنة ١٤٨٧/٨٨ وهو ناظر ديوان الإنشاء للسلطان قايتباي.

بنى مسجدا رائع العمارة بحارة برجوان، تلك الحارة التي كان يقيم فيها مؤرخنا الجليل تقي الدين المقريزي، وقد تم بناء المسجد فيما بين ١٤٧٩ و ١٤٨٠. للمسجد واجهتان خاليتان من الزخارف (الشرقية والبحرية)، أما بابه البحري فعتبه منقوش نقشا جميلا، ويعلو الباب الذي بالواجهة الشرقية مئذنة رشيقة من ثلاث دورات بها كثير من الزخارف التي جعلتها من أرشق مآذن مصر[٢٤]. ومع أن الأرض التي أنشئ عليها هذا المسجد صغيرة المساحة وغير منتظمة الشكل إلا أن براعة المهندس تغلبت على هذه الصعوبة وجاء تخطيطه بديعا للغاية.

فالتخطيط الداخلي يخالف مساجد عصره، فواجهة كل من الإيوانين الشرقي والغربي محمولة على عمودين يحملان ثلاث أقواس. أما الإيوان البحري والقبلي فصغيران، ولعل مهندسه اقتبس هذه الفكرة من مسجد أصلم البهائي .

[٢٤] محمود أحمد: دليل موجز لأشهر آثار القاهرة ، ص ١٦٩- ١٧١.

ويحفل المسجد من الداخل بشتى الفنون والصناعات الإسلامية: أعمال الرخام التي كسيت بها جداران وزرة الإيوان الشرقي، المحراب من الرخام الدقيق، الزجاج الملون، وقد كتب الصانع اسمه بشكل زخرفي في الشباك الشرقي البحري، وعلى يسار المحراب ونصه "عمل عبد القادر النقاش" ودكة المبلغ بألوانها، والأسقف المموهة بالألوان والذهب، وأعمال النجارة على قدر عظيم من الجمال والدقة، تبدو في الأبواب والخزانات والمنبر، كذلك حشوات السن والأبنوس، ورنك منشئ المسجد يمثل "محبرة" إشارة إلى وظيفته وهي ناظر ديوان الإنشاء. إن كل ما في هذا المسجد أنيق وجليل وجميل، يدل على ما وصل إليه صناع مصر وفنانوها من الحذق والمهارة وحسن الذوق.

الأمير أزبك الخازندار اليوسفي

من أمراء عصر قايتباي، وكان أولا من مماليك الظاهر جقمق ثم أعتق، وعرف بأزبك الخازندار لأنه تولى منصب الخازندارية في أول حياته الرسمية. صار أميرا مقدما واختير لإمارة ركب المحمل ركب المحمل عام ٨٨٧ هـ (١٤٨٢) ، ثم عينه قايتباي رأس حملة لتأديب الثائرين في بلاد البحيرة (٨٩٨ هـ) فأدى مهمته وعاد. وفي عام ٩٠١ هـ رقي الأمير أزبك إلى أمير سلاح فأمير ألف، ولكن ساءت علاقته بالسلطان قايتباي فنفاه. ولما اعتلى قانصوه الغوري العرش صفا له الجو، ثم توفي ٩٠٤ هـ (١٤٩٨) وكان أزبك قد بنى له مدرسة ومدفنا فدفن فيه.

شيَّد مدرسته بالقرب من بركة الفيل في شارع سمي باسمه في عام ٩٠٠ هـ (١٤٩٤/ ٩٥) وق نقش على مدخلها هذا التاريخ ولها طرقة مفروشة بالرخام، وبدائرة صحنه من أعلى نقش في الحجر آيات قرآنية وكتب بجار الصحن القبلي: "أمر بإنشاء هذه المدرسة المقر الأشرف الكريم العالي.. اليوسيفي أزبك أمير سر نواب النوبة الملكي الأشرفي".

الأمير أزبك بن ططخ الأتابكي

من أجلاء أمراء السلطان قايتباي وتقلد أتابكية الجيش (قيادته) بمصر حوالي ثلاثين سنة قام بواجباتها خير قيام وانتصر في عدة معارك كما أخمد عدة فتن وثورات، وكان في خلال تلك المدة ينوب عن السلطان في مهام كثيرة فصحبه في رحلة طويلة إلى سورية للتفتيش عن الحصون والحاميات وكان ذلك في عام ٨٨٠ هـ (١٤٧٥) . وتوفي في عصر السلطان قانصوه في ٢٠ رمضان سنة ٩٠٤ هـ الأزبكية. والجدير بالذكر أن هذا الأمير هو الذي نهض بحي الأزبكية بعد أن ردم بركة بطن البقرة، وجعل منه متنزها شائقا، يحدثنا عنه ابن اياس، قال: "كانت أرض الأزبكية خربة ممتلئة بكتب من الرماد ينبت بها بعض أشجار السنط والأثل، وبها أضرحة بعض الأولياء. وتناولها بعض المصلحين بضروب من الإصلاح، فأجري اليها الماء بواسطة خلجان تخرج من النيل، وأنشأ بها المناظر والبساتين وما شابه ذلك ثم عفى الزمان أثرها وعادت إلى خرابها وتناقص عمرانها، وما زال هذا أمرها حتى سكن الأتابكي "أزبك" على مقربة منها، ولم تكن أرضها ملكا له وإنما كانت من أملاك الدولة وما يخرج منها من ثمار

يعود على الناس، ولكن الأتابكي أزبك رأى أن يجري إليها أسباب الحياة ويمد لها ضروب العمران، فأنفق عليها نحوا من مائتي ألف دينارا، فمهد أرضها وأنشأ مناخا لجماله ثم حفر بركة وجمل شواطئها وأجرى اليها الماء بوساطة الخلجان وبنى فوقها القناطر ونشر حولها المقاعد وأحاطها بالبساتين، وشاد العمائر والربوع والحمامات والقاعات والطواحين والأفران، وضروبا كثيرة من مرافق الحياة حتى غدت الأزبكية أحد منازه القاهرة، وتكسر سدود خلجانها كل عام في حفل يحضره الأمراء والأعيان، ويجتمع فيه الناس للمشاهدة واللهو والسمر، ومما أنشأه فيها مسجد كبير، وقد وهب السلطان أرض هذه الأزبكية للأتابكي أزبك بعد تمام هذه الجهود في إنشائها (ابن إياس : ج ٢).

ومن بنائي القاهرة في أخريات القرن الخامس عشر: الأمير ماماي صاحب المقعد الجميل (لوجيا) في بيت القاضي (١٤٩٦)، ويعقوب شاه المهمندار وقبته معروفة في سفح المقطم (١٤٩٥/ ٩٦)، وقانصوه أبو سعيد، والأمير خاير بك ومسجده بالتبانة (١٥٠٢)، والأمير قاني باي أمير آخور ومدرسته تطل على ميدان صلاح الدين (١٥٠٣/٤) وهي تنسجم وتتلاءم مع ما جاورها من العمائر الجميلة، وبرقبتها كتابات رائعة في الحسن، ومئذنتها ذات رأسين، ربما تكون الأولى بين مثيلاتها في القاهرة.

السلطان البنّاء قانصوه الغوري

هو آخر سلاطين المماليك البنائين.. حكم هذا السلطان المسن فيما بين عامين ١٥٠١ و ١٥١٦ حينما سقط شهيدا في معركة مرج دابق

وهو يقاتل جيش العثمانيين. كان حاكما قوي الإرادة وقضى على العسف الذي عم القاهرة، ثم زاد الضرائب دفعة واحدة لينفق ما يجمعه على الجيش والإصلاحات والمباني العامة التي غمر بها القاهرة.

يقابلنا في طليعة ما بناه الغوري المدفن الذي لم يدفن فيه والخانقاه والمكتب والمقعد، وتقع هذه المجموعة على رأس تقاطع شارع الغورية بشارع الأزهر، ولها واجهتان رائعتان إحداهما غربية مشرفة على شارع الغورية والثانية بحرية مطلة على شارع الأزهر، وقد شيد السلطان هذه المجموعة فيما بين عامي ١٥٠٣ و ١٥٠٤.

ويقابل هذه المجموعة: مسجد الغوري الذي شيده في عام ١٥٠٤ على الطراز المتعامد، ويتوصل إليه من سلم يؤدي إلى مدخل يشبه مدخل المجموعة الأولى. ويؤدي إلى دركاة جميلة مفتوح في جانبيها القبلي باب يوصل إلى طرقة تؤدي إلى صحن المسجد الذي يشتمل على أربعة إيوانات أكبرها الإيوان الشرقي، وهذه الإيوانات مغطاة بسقف جميل ذي نقوش مموهة بالذهب، وللصحن منور مستطيل وأرضية الصحن والإيوانات مفروشة بالرخام المختلف الألوان البديع الصنع، وبالطرف القبلي للواجهة تنهض المئذنة المربعة المنتهية بدورة مكونة من أربعة رءوس، وكانت مكسوة بالقاشاني الأزرق. وشيد الغوري وكالة عظيمة ما زالت قائمة إلى اليوم وتعرف باسمه، كما أنه جدد قناطر المياه (١٥٠٦/ ١٥٠٨) المؤدية من فم الخليج إلى قلعة الجبل.

وإلى السلطان الغوري تنسب بضعة أرباع في خان الخليلي، كما أنه بنى عند باب القنطرة ربعين وداكاكين، وأمر بإنشاء ميدان فسيح تحت القلعة وجلب إليه الأشجار من الشام، وأجرى إليه الماء من السواقي، وأنشأ به المناظر والمقعد وأقام مسجدا خلف الميدان المذكور، وجدد كثيرا من مباني القلعة كالدهيشة وقاعات البيسرية والأعمدة وبنى المقعد الذي بالحوش. كما بنى سوقا للرقيق بالقرب من خان الخليلي. وجدد السلطان الغوري عمارة مقياس الروضة وبنى به قصرا ومقعدا مطلا على النيل، وجدد عمارة قناطر السباع بالسيدة زينب.

وهكذا ينهض اسم قانصوه الغوري بين بناة القاهرة بكل حق، وبتلك الأعمال الجليلة نختتم مباني المماليك الجراكسة، إلا إذا أضفنا إليها قبة قرقماس (١٥١١) وقبة بيبرس الخياط (١٥١٥) ومنارة مسجد أزدمر.

عبد الرحمن كتخدا أمير البنّائين في العصر العثماني

وهذا بنَّاء عظيمٌ عالي الهمة في أيام العثمانيين.. يُعتبر في مقدمة الساعين في تجميل القاهرة وترصيعها بمبانيه، كان صاحب نفوذ قبل أيام يك الكبير، وقد ورث عبد الرحمن ميوله الفنية عن أبيه الذي استطاع أن ينشئ مما جمعه من ثروة: مدرسة ومسجد وسبيلا بالقرب من بركة الأزبكية، وفي يوم افتتاحها ملأ حوضا كبيرا وكل ما وصلت إليه يده من الأواني بالشراب المحلى بالسكر ليسقي الأهالي، وبنى منشآت خيرية أخرى.

كان الأمير عبد الرحمن كتخدا مصر (محافظا لها) في عام ١٧٤٤ وقد عشق البناء، فأنشأ وجدد كثيرا من المساجد والأسبلة والأضرحة. وقد

اشتهر عبد الرحمن بما أدخله من زيادات من الجانب الشرقي من الأزهر، ومن بينها: ضريحه الخاص، وجزء من المدخل، وخمسون عمودا من رواق القبلة، ومنبر ومحراب جديدان، وشيَّد مئذنتين وبابي الشوربة والصعايدة.

جمع عبد الرحمن كتخدا في أكثر مبانيه بين الجمال والفن، ويتجلى ذلك في سبيله الرائع الواقع عن ملتقى شارعي النحاسين والجمالية والمعروف باسمه حتى اليوم. ولهذا السبيل ثلاث واجهات بها ثلاث فتحات عقودها من الرخام الملون، و"تواشيحها" من الرخام الدقيق موضوع عليها شبابيك نحاسية، ويعلو السبيل كتاب ذو مظلات وحواجز من خشب الخرط. ويتضمن السبيل كتابات تحتوي على اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء (١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م) أما حجرة السبيل فقد غشيت جدرانها بالقاشاني، وعلى جزء من جداره الشرقي رسم صورة الكعبة الشريفة. وأنشأ الأمير عبد الرحمن عند باب الفتوح مسجدا وصهريجا وكتابا.

وفي مدخل الأزهر أعاد بناء المدرسة الطبرسية وجعلها مع مدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير من أحسن المباني فخامة وبهاء، كما أنه بنى المشهد الحسيني، وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب مسجدا وصهريجا وحوضا وسقاية ومكتبا، وشيَّد مسجدا بجهة الأزبكية ومكتبا وحوضا. وبنى مشهد السيدة زينب، ومشهد السيدة سكينة والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة، والسيدة فاطمة والسيدة رقية، وعمَّر المدرسة السيوفية كما جدد المارستان المنصوري، وغير ذلك من المساجد والأسبلة.

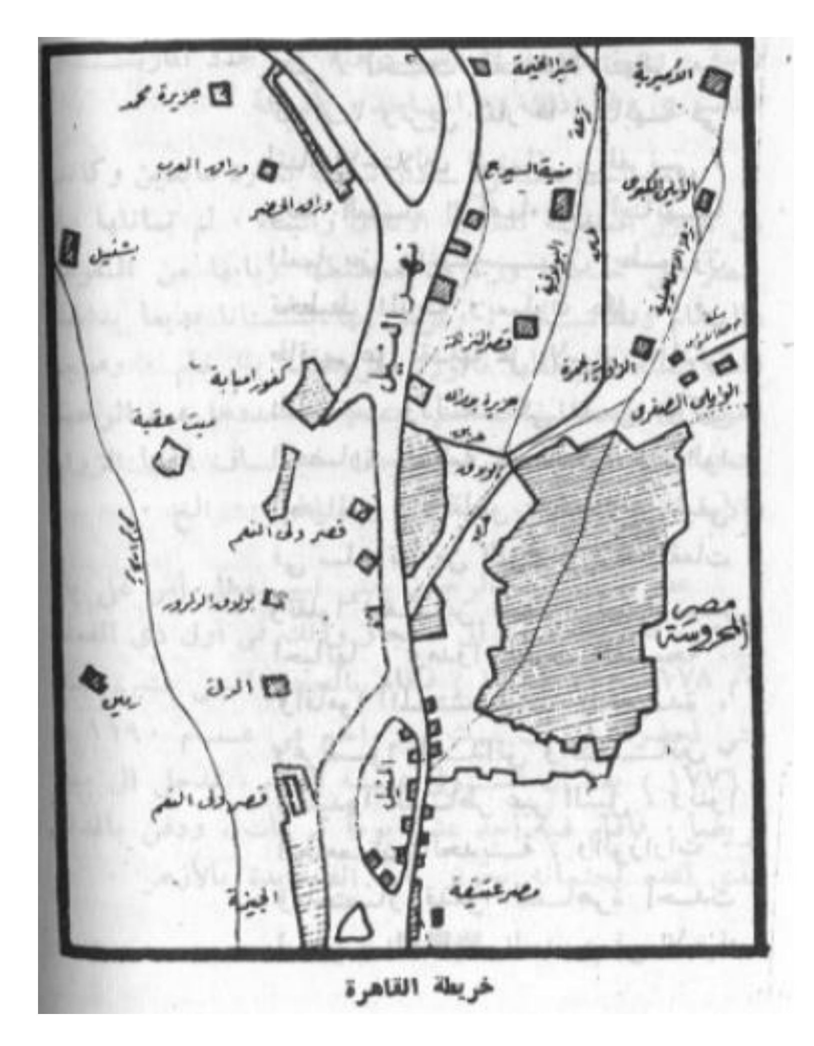
ومن أجمل عمائره: دار سكنه بحارة عابدين، وكانت من الدور العظيمة المحكمة الإتقان والبناء، لم تماثلها دار بمصر في حسنها وزخرف مجالسها، وبابها من النقوش والرخام والقاشاني، وغرس بها بستانا بديعا بداخله قاعة متسعة بوسطها نافورة مفروشة بالرخام.

وموجز القول أن عدد المساجد التي بناها أو جددها عبد الرحمن كتخدا بلغ ثمانية عشر مسجدا، يضاف اليها الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والقناطر.. الخ .

عظم شأن عبد الرحمن حتى استفحل أمر علي بك الكبير، فأخرجه منفيا إلى الحجاز وذلك في أول ذي القعدة عام ١١٧٨هـ (١٧٦٤) فأقام بالحجاز اثنتي عشرة سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج في عام ١١٩٠هـ (١٧٧٦) بعد أن استولى عليه الهرم، فدخل إلى بيته مريضا، فأقام فيه أحد عشر يوما ثم مات، ودفن بالمدفن الذي أعده لجثمانه بجوار باب الصعايدة بالأزهر.

بُناة القاهرة الحديثة

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر، أخذت القاهرة تنهض من كبوتها وتزيل آثار ما أصابها في أثناء الاحتلالين العثماني والفرنسي، وبدأ البناة الأكفاء من أبنائها المعماريين والمهندسين يطورون تخطيط المدينة ويعملون بكل ما في طاقتهم على تقديمها على الأسلوب المدني الحديث، وذلك لكي نلحق موكب الحضارة العالمية الحديثة؛ فأزالوا الخرائب والأنقاض وردموا ما تبقى من مساحتها من البرك والمستنقعات ونقلوا المقابر المبعثرة في جميع أحيائها، ومدوا الطرق الفسيحة، وأقاموا المستشفيات الجديدة، وغرسوا الحدائق والبساتين، وشيدوا القناطر عبر النيل، وبنوا الجامعات الحديثة، والوزارات. وباختصار قدموا للقاهرة أحدث أساليب التخطيط الحديث في الأحياء.



خريطة القاهرة

والضواحي التي أنشأوها في المعادي ومصر الجديدة والدقي ومدينة نصر، مما نشاهده أمامنا اليوم في مدينتنا الخالدة.. ونرجو أن نواصل الجهود في الحفاظ على مبانينا التاريخية القديمة، ونعمل على صيانتها من كل ما يصيبها فهي معالم القاهرة الألفية ومن مقومات شخصيتها الجليلة.

***

الفصل الرابع

رجال العمارة وهندسة البناء في القاهرة

في شهر نوفمبر عام ١٣٨٢ حظيت القاهرة بقدوم المؤرخ والفيلسوف التونسي عبد الرحمن بن خلدون، فبهرته عظمتها وجمال عمارتها، ونراه يسجل انطباعه عنها في ذكرياته، قائلا:

"انتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة عام ٧٨٤ هـ (١٣٨٢)، فرأيت حاضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه، وتضئ البدور والكواكب من علمائه. وقد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة، وموقع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سيحه، ويجبي إليهم الثمرات والخيرات ثجة، ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم..."

ثم ختم حديثه قائلا: "ومن لم يرها (يقصد القاهرة) لم يعرف عز الإسلام"[٢٥]

[٢٥] عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ هـ – ٨٠٨): التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، حققه الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٩٥١.

استقر ابن خلدون في القاهرة ما يقرب من ربع القرن حتى توفاه الله في سنة ١٤٠٦ بعد أن شغل عدة مناصب دينية وعلمية كبرى، كان من أهمها مناصب القضاء.

عاصر ابن خلدون في مصر زميل ومؤرخ نعرفه حق المعرفة، وهو العلَّامة أحمد بن علي المقريزي (١٣٦٤ – ١٤٤١) الذي وصف لنا القاهرة وعمائرها وأخطاطها وأمدنا بتاريخ واف عن هذه المدينة الجليلة، حينما تناثرت فيها المساجد والأضرحة والدور والقصور والمدارس والحمامات والوكالات والأسواق، وكل منها يحكي قصة تاريخية جليلة عن منشئها ومهندسها، وجمال عمارتها.

وموجز القول، فقد كانت القاهرة في تلك الأيام (القرن الخامس عشر) مدينة رائعة الجمال فخمة البناء ترصعها العمائر الرائعة في كل حي من أحيائها التليدة.. كانت جميع المباني العتيقة التي نمر بها اليوم، كمدرسة السلطان حسن وقصور الأمير ماماي ويشبك وبشتك وخانقاه فرج بن برقوق، وعمائر الناصر مُحَمَّد بن قلاوون وأبيه، كانت جميعها في قمة مجدها حينذاك تلك هي القاهرة التي نمج ذكراها، المدينة الألفية التي تفخر بأزاهرها الجليلة على مر الزمن. القاهرة التي احتوت على مئات من الكنوز الأثرية التي تحكي تاريخها خلال ألف سنة.. وكأنها موسوعة معمارية، تصف طراز كل عصر وأسلوب كل زمن في فن البناء والزخرفة والنقش: مآذن وقباب ومحاريب وأضرحة وأسبلة، نشاهدها في تطور معماري منسجم، وكأننا في متحف يوضح تطور أساليب العمارة التي امتازت بها القاهرة.

مرت بنا أسماء جميع الحكام الذين أسهموا في بناء عمائر القاهرة ولا سيما السلاطين المماليك وأمراؤهم ممن أقاموا المدارس والمساجد والخوانق والمدافن التي تميزت بالتأنق في مآذنها وفي قبابها. وقد جهل معظم هؤلاء روح الإسلام، فحسبوا هذا الدين السمح مظاهر من بناء مساجد ومدارس ومستشفيات وخوانق ومشاركة في صوات عامة لا تنهاهم عن فحشاء ولا تردعهم عن منكر.[٢٦]

وعلى أية حال فقد كان لهؤلاء المماليك مزايا أخرى، في طليعتها الجهاد المسلح في سبيل تحرير الأراضي الإسلامية من الصليبيين المتعدين وقد ظفروا، والحق يقال. فمن هم أولئك الرجال من مهندسين ومعماريين، وبنائين وزخرفيين أصحاب الفضل الأول في بناء القاهرة وتشييد مبانيها الجليلة؟؟.. لا شك أن هناك أسماء لا يمكن بأية حال من الأحوال أن نجعلها وهي أسماء القائد جوهر الصقلي باني القاهرة والأزهر والقصر الكبير الشرقي، وهناك سيده المعز لدين الله وابنه العزيز بدين الله الذي يعزى إليه بناء جامع الحاكم بأمر الله وإن لم يكمله، وهناك أيضا القائد الحازم بدر الدين الجمالي الذي أعاد بناء أهم بوابات القاهرة من الحجارة بدلا من اللبن، كذلك ابنه الأفضل .

ولم ننس أيضا صلاح الدين الأيوبي، وقائده قراقوش الذي شيَّد أمجد بناء مازال شامخا فوق المقطم، وهو قلعة الجبل المعروفة بقلعة صلاح

[٢٦] محمد الصادق حسن: البيت السبكي بيت علم في دولتي المماليك، ص ٢٧، دار الكاتب المصري، القاهرة ١٩٤٨.

الدين، وإلى جانب أولئك الرواد الذين صنعوا القاهرة، توجد طائفة تدين المدينة الكبرى لهم لما شيدوه فيها من المباني الرائعة.

ففي النصف الأول من القرن التاسع شيَّد أبو بكر البنَّاء[٢٧] لأحمد بن طولون عدة مبان، وفي فلسطين شيَّد حصنا منيعا في عكا. كما وصل إلينا اسم المهندس إبراهيم بن غنائم بن سعيد الذي بنى القصر الأبلق بالقلعة وضريح السلطان الظاهر بيبرس بدمشق عام ١٢٧٧ (٦٧٦هـ) ولا يزال اسمه منقوشا على باب هذا الضريح ويعرف اليوم بالمدرسة الظاهرية.

ابن السيوفي:

فإذا انتقلنا إلى عصر دولة المماليك الأولى، وهو عصر البناء، ولا سيما في أيام أسرة قلاوون، يقابلنا ابن السيوفي في طليعة مهندسي الناصر محمَّد بن قلاوون. ذكره المقريزي في خططه عند كلامه على مدرسة الأمير عبد الواحد أقبغا الكائنة على ميسرة الداخل إلى الأزهر من بابه الرئيسي المعروف بباب المزينين، وهي الآن مقر المكتبة الأزهرية، وكان ذلك في سنة ٧٤٠ هـ (٣٣٩/ ٤٠). وقد شيد ابن السيوفي مسجد الطنبغا المارديني وهو تحفة رائعة في الدرب الأحمر، كما بنى مئذنته أيضا.

شهاب الدين أحمد بن أحمد محمد الطولوني :

عاش في القاهرة وبنى مدرسة وخانقاه الظاهر برقوق عام ٧٨٨هـ (١٣٨٦) كانت له خطوة كبرى عند السلطان، فرقاه إلى رتبة الخاصكية ثم

[٢٧] يظن أن ابن الرومية هو الذي بنى فوارة مسجد أحمد بن طولون عام ٣٨٥ هـ (٩٩٥م) بأمر الخليفة العزيز بالله.

منحه لقب أمير عشرة. وفي سنة ٧٩٤هـ (١٣٩١ /٢) تزوج برقوق من ابنته. ثم أوفده عدة مرات إلى مكة لإصلاح المسجد الحرام، وبعد فراغه من العمارة في آخر المرات توفي، وكان ذلك في ١٠ صفر ٨٠٢ هـ (١٣٩٩).[٢٨]

ومن مهندسي العصر المملوكي البارزين: المهندس أبجيج الذي أشرف على بناء قاعة الدهيشة التي كانت تطل على الحوش بقلعة الجبل وقد عمرها السلطان الصالح إسماعيل بن مُحَمَّد بن قلاوون سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤). وأبو بكر المعروف بابن قيسون، وأحمد بن علي المهندس المعروف بابن الرسول، وإبراهيم بن عبد الله بن يوسف. وهناك المهندس مُحَمَّد بن بيليك المحسني مهندس مدرسة السلطان حسن، وهو واحد من أسرة اشتهر بعض أفرادها بهندسة البناء، ويعتبر عمله الشامخ هذا من أعظم العمائر الإسلامية في العالم.

ومن أشهر مهندسي دولة المماليك الثانية (الشراكسة):

على بن مُحَمَّد بن أحمد المعروف بأبي الحسن.

إبراهيم بن عبد الله المهندس.

إسماعيل بن على بن مُحَمَّد المهندس المعروف بابن الفقيه.

على بن مُحَمَّد بن عبد القادر المهندس المعروف بابن الصياد .

[٢٨] الضوء اللامع للسخاوي: جـ ١ ص ٢٢١ انظر أيضا جـ ٦ ص ٢٠٨.

والمهندس مُحَّد بن القزاز الذي شيد منارتي مسجد المؤيد شيخ الملاصق لباب زويلة (٨٢٢ هـ – ١٤١٩) رقد انتهز ابن القزاز وجود هذا الباب العظيم لصق المسجد فاتخذ من بدنتيه قاعدتين لمنارتيه. وكان موفقا حقا، وهما منارتان رشيقتان لكل منهما ثلاث دورات حليت بالكتابات والنقوش، وتقوم الدورة الثالثة على عمد رشيقة، وكتب على المئذنة الشرقية: "عمل هذه المئذنة المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى مُحَّد بن القزاز، وكان الفراغ أول رجب سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة". وكذلك نقش على المئذنة الغربية كتابة بهذا المعنى وتاريخها ثلاث وعشرين وثمانمائة.

حسن بن حسين الطولوني :

ولد بالقاهرة في عام ٨٣٦ هـ (١٤٣٢/ ٣٣) ونشأ في أسرة من رجال العمارة، وتلقى العلم على السخاوي المؤرخ المصري الذي أثنى عليه كثيرا. تقدم في عمله حتى نال حظوة السلطان أينال وفي ربيع الأول عام ٨٥٧ هـ (١٤٥٣) عينه "معلم المعلمين" ومعلم المعمارية. شيد ضريح خشقدم بالقاهرة ومنحه خلعة الشرف في ٩ ربيع ثان عام ٨٦٦ هـ (١٤٦٢) حينما زاره السلطان في أثناء قيامه بالعمل. بيد أنه استغنى عنه بعد زمن وعين مكانه بدر الدين حسن الطنامي عام ٨٦٩ هـ (١٤٦٤/ ٥) ثم استدعاه ثانية ورفته مرة أخرى .[٢٩]

وفي شوال عام ٨٧٤ (١٤٧٠) تولى المنصب بدر الدين مُحَّد بن الكويز (وسنتكلم عنه) ويبدو أنه استعاد منصبه بدليل أن السلطان ندبه

٢٩

للقيام بإصلاحات في مسجد القلعة وتوسيع صهريج المياه الخاص بالفوارة. وكان يقوم بالعمل في صفر عام ٨٨٦ هـ (١٤٨١). وفيما بين ربيع الثاني من العام المذكور وشهر رجب ٨٩٦ (١٤٨١– ١٤٩١) قام بإصلاح جامع جزيرة الرمضة وبناء طواحين المياه (النواعير) بالقاهرة.. وكانت تعتبر من مشاهد القاهرة، وربما أصلح ابن الطولوني حينذاك مقياس النيل. وفي عام ٨٩٢ أصلح قنطرة أبي المنجا، ثم أدى فريضة الحج في عام ٨٩٨ هـ (١٤٩٣). ومن المحقق أنه كان رئيسا للمعلمين في عام ٩٠٨هـ (١٥٠٢/٣). وتوفاه الله بعد تأديته فريضة الحج عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧) وكان ابنه شهاب الدين أحمد خلفه رئيسا للمعلمين لما فقد والده بصره. وقد ذكر اسمه بين أعيان الصناع الذين رحلوا إلى الأستانة عام ١٥١٧ بعد فتح العثمانيين لمصر

بدر الدين محمد بن الكويز:

من معماري عصر السلطان الأشرف قايتباي. عينه في ٨ شوال ٨٧٤ هـ (١٤٧٠) "معلم المعلمين" بدلا عن حسن الطولوني. في ذي الحجة من عام ٨٧٥ هـ (١٤٧١) بدأ بإصلاح الإيوان الكبير في قلعة الجبل. وكان القاضي أبو بكر مُحَّد بن مزهر كاتب سر السلطان قايتباي هو المشرف على هذا العمل وقد أنفق عليه حوالي ٠٠ ٠، ٢٠ دينار. وفي شعبان ٨٨٣ هـ (١٤٧٨) عين ناظر الخامي (الأعمال الخاصة بالسلطان). وتوفي ابن الكويز في شعبان ٨٨٥ هـ (١٤٨٠) وهو في الثامنة والخمسين.

ومن مهندسي عصر قايتباي أيضا:

المعلم ابراهيم الشهير بالسكري .[30]

عبد الله بن شعبان بن سليمان المهندس

أحمد بن مُحَّد بن أحمد المشهور بابن العظمة

المعلم مُحَّد بن أحمد بن علي النشادري المعروف بأبي سبيع، ولعله كان من المهندسين الذين كلفهم الأتابكي أزبك بن ططخ باقامة مسجده ودوره الجليلة في الأزبكية، وكان لهذا المهندس الثري معمل لصنع النشادر بباب اللوق .[31]

ومن مهندسي عصر السلطان قانصوه الغوري:

المعلم الشمسي مُحَّد بن المعلم المحيوي عبد القادر ابن الصياد.

أحمد بن على بن أحمد المعروف بالسحراوي. يوسف ابراهيم بن عبد الله المعروف بمهندس باب السلسلة بالقلعة.

ونضيف إلى هؤلاء الأجلاء بعض مشاهير المعماريين في العصر الحديث، وعلى رأسهم علي لبيب جبر، ومحمود رياض، ورمزي عمر، وسيد كريم ، وأنطون نحاس، ومُحَّد شريف نعمان، ومحمود فكري عبد الخالق،

[30] وثيقة قايتباي أوقاف ٨١٠

[31] وثيقة أزبك بن ططخ محكمة ٩٨. أنظر أيضا عبد اللطيف إبراهيم: سلسلة الدراسات الوثائقية، ص ٨٠

وفوزي حسنين، وأبو بكر خيرت، وإسكندر كليماندوس، وشارك عيروط، وعلي نصار، وغيرهم من سادة المعماريين المعاصرين.

وهؤلاء المهندسون الذين شيَّدوا القاهرة وجمَّلوها بالعمائر التي نشاهد بعضها إلى اليوم يعوزهم طوائف النحاتين والبنائين والمرخمين والنجارين وغيرهم من أصحاب المهن والحرف الأخرى. ومما يؤسف له أنه لم يصلنا أسماء الكثير منهم. فمن البنائين والنحاتين: حاتم البنا وابنه من بنائي الفاطميين. وأسرة المعلم يونس البرلسي، وقد أسهمت في بناء مسجد أحمد البجم بأبيار سنة ١٠٤١هـ (١٦٣١). ومن المرحومين مُحَّد بن أحمد، وأحمد زغلش الشامي، وقد كتبا اسميهما على جانبي باب قصر قوصون (ح ١٣٣٨م) وهو باب جميل لاشتماله على مقرنصات وكتابات دقيقة، وعبد القادر النقاش الذي قام بنقش رخام مدرستين من أفخم مدارس دولة المماليك الشراكسة، وهما مدرستا قحماس الإسحقي، وأبي بكر مزهر. وقد كتب اسمه في مسجد قجماس المنشا سنة ٨٨٥/ ٨٨٦ هـ (١٤٨٠/٨١) في دائرة زخرفية بتجويفة المحراب طردا وعكسا بما نصه "عمل عبد القادر النقاش" وكتبه بشكل زخرفي آخر في خواصر العقود، وكذلك كتب اسمه في خواصر عقود المدرسة المزهرية، وفي جحور الشبابيك[٣٢]. وهناك أيضا المرخم علي بولاقي الذي نقش اسمه على شاهد قبر إسماعيل بك دفتردار مصر (ت ١١٣٣ هـ/ ١٧٢٠).

[٣٢] حسن عبد الوهاب: توقيعات الناع على اثار مصر الاسلامية . مقال لنشر في مجلة المجمع المصري، جـ ٢٦ (١٩٥٢ ــ ١٩٥٤)

ومن النجارين، وقد وصل إلينا أسماء كثيرة منهم، نذكر: محمد بن عينو أحد نجاري جامع ابن طولون، وقد كتب اسمه بالكوفية على ظهر ألواح الإزار الكوفي، وعلى بعض أجزاء السقف. وعبيد النجار المعروف بابن معالي وهو الذي صنع تابوت الإمام الشافعي سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨) في أيام صلاح الدين، وهو تحفة بديعة جدا، ويعتبر من أرقى نماذج أعمال النجارة والحفر في الخشب، وقد كتب الصانع اسمه في الطرف العلوي للغطاء الهرمي وبخط صغير، والنجار أحمد بن عيسى بن أحمد الذي صنع منبر مدرسة أبي بكر مزهر بحارة برجوان التي بنيت في سنة ٨٨٤ هـ (١٤٧٩) وله منبر آخر في جامع الغمري، والنجار على بن طنين صانع منبر مسجد أبي العلاء الذي شيد حوالي سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥) وهو منبر تميز بتقاسيم ريشتي جانبيه، ويعتبر مثالا كاملا لأعمال النجارة في دولة المماليك الشراكسة.

أما المكفتون والنحاسون فكثيرون وقد وصلت إلينا طائفة من أعمالهم الفنية المحفوظة في متاحف العالم، ومنهم أحمد بن باره الموصلي الأصل الذي صنع صندوقا للربعة الشريفة، مكفتا بالذهب والفضة باسم الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣م). وهو الآن مودع بمكتبة الجامع الأزهر، وبدر بن أبي يعلا صانع الثريا الكبيرة الموجودة في متحف الفن الإسلامي، وهي من النحاس الأصفر ومكونة من خمس طبقات وهي باسم الأمير قوصون مؤرخة سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠).

المراجع

- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. ابن الأكفاني، محمد: نخب الذخائر في أحوال لجواهر، تحقيق الأب أنستاس الكرملي، القاهرة ١٩٣٩. د. أحمد عيسى: معجم الاطباء، القاهرة، ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢.
- د. بول غليونجي: ابن النفيس، سلسلة كتب أعلام العرب رقم ٥٧/ القاهرة ١٩٦٧.
- جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، خمسة أجزاء، القاهرة.
- د. زكي محمد حسن: فنون الإسلام، القاهرة، ١٩٤٨.
- د. زكي محمد حسن: مصر والحضارة الإسلامية، سلسلة الثقافة العسكرية.
- السخاوي: الضوء اللامع في أعلام القرن التاسع، القاهرة.
- د. سيدة اسماعيل كاشف (بالاشتراك مع د. حسن أحمد محمود): مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين القاهرة، ١٩٦٠.
- السيوطي، جلال الدين: حسن المحاضرة في أخبار مصر القاهرة.
- عبد الرحمن زكي: تراث مصر في الحضارة الإسلامية القاهرة ١٩٦١.
- د. عبد اللطيف ابراهيم: دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية، القاهرة.
- علي مبارك باشا: الخطط التوفيقية الجديدة، القاهرة ١٨٩٢.
- قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، القاهرة.
- القفطي، جمال الدين: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، مطبعة السعادة.
- القلقشندي: صبح الأعشى، القاهرة .

- مُحَمَّد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله، وأسرار الدعوة الفاطمية، القاهرة.
- المقريزي. المواعظ والاعتبار في ذكرى الخطط والآثار. القاهرة.
- ميبلي، ألدو: العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، دار القلم ١٩٦٢ دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة.
- مجلة الجمعية المصرية للتاريخ العلوم، القاهرة. الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة، ١٩٦٤ – مجلة المقتطف.

- Glanville (Editor) Legacy of Egypt. Oxford 1947 Meyer Hlf. Max : Climate and Health in Qld Cairo. According to Ali tbn Radwan. Cairo. De cember 1928.
- Partington. J.R :A Hiatory of Greets fire and Gynpowder. Gambridge.
- Sarton : Tntroduction to the History of Science 3 vots.
- Sbath. Paul : Catalogue de manuscrits arabes.3 parts.
  - طبعة الشرق القاهرة ١٩٣٨ – ١٩٤٠
- :Deux traits medicaux edites et traduits par P. Sbath et chr. Avierinos.lnst. F.A.O..Le Caire. 1953.

الفهرس